الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة – تلمسان –

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي شعبة الآداب والحضارة

2013
Fac.L.No8247

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماستر

تخصص

دراسات مقارنة بين الأدب والحضارة

الموسومة بـ :

مستويات اللغة في رحلة ابن فضلان

إعداد الطالبة : إشراف الدكتور :

سرير خديجة عبد القادر بن عزة

السنة الجامعية2012/2011
1434/ 1433 هـ

MAS_410.40/01

مقدمة

مقدمة

تتضمن هذه الدراسة موضوعا أدبيا ،يعرّف بأدب الرحلة،وكنموذج درسنا رحلة ابن فضلان ،هذه الرحلة التي كشفت أغوار العالم الجغرافي، والمعلومات الجغرافية التي كانت سببا في التعريف ببلاد البلغار والبلدان المجاورة، مما جعل لها ميزة كبيرة بين الرحلات الأخرى،سواءا التي عاصرتها أو التي جاءت بعدها ،إذ أضاءت ثغرة كبيرة عن الماضي البعيد لتلك الشعوب، وقدمنا إضافة للدارسين والباحثين في مسار هؤلاء الشعوب .

فمن هو ابن فضلان؟، وما هي خصائص هذه الرحلة؟، وما أهم الموضوعات التي تضمنتها في ثناياها حيث كانت السبب والدافع لاختيارنا هذا الموضوع؟.

فقد تطلب منا هذا الموضوع إتباع الخطة البحثية التالية :

مدخل وفصلين بعد مقدمة و تذييل بخاتمة، تطرقنا في المدخل إلى مختلف التعريفات التي تناولت أدب الرحلة، مع التركيز على مراحل تطور هذا الفن عبر العصور التاريخية.

ثم خصصنا فصلين للدراسة والتنقيب عن معالم هذه الرحلة ،ففي الفصل الأول تطرقنا فيه إلى التعريف بشخصية ابن فضلان رغم قلة المصادر والمراجع التي وثقت حياة هذا الرحالة، مما جعل شخصية الرحالة تبقى غامضة أمام الباحثين والراغبين في معرفة جوانب من حياة هذا العلامة والفقيه، ثم قمنا بإبراز أهمية هذه الرحلة الثقافية والاجتماعية والتاريخية بالإضافة إلى الخصائص التي تميزت بها.

أما في الفصل الثاني درسنا فيه لغة الرحلة ،في البداية درست مسارات السرد التي تخللت الرحلة الفضلانية ،مما جعله ينتصب كعنوان شامل لتجليات اللغة، ثم تطرقنا إلى ممرات الوصف ،فسارد الرحلة يصف ليسرد ويسرد ليصف،وفي الأخير تطرقنا الى الحوار كفن إبداعيباعتباره جزء لا يتجزأ من الخطاب السردي

وتوصلنا في الخاتمة إلى بعض النتائج ذكرناها حسب الأهمية في البحث.

أما المنهج الذي اتبعناه فهو المنهج التاريخي مع استعمال آلية التحليل، وقد اعتمدنا على رسالة ابن فضلان كمصدر محوري للبحث إضافة إلى كتاب عبد الرحمن حميدة - أعلام الجغرافيين العرب.

وفي الأخير أود أن أوجه شكري وامتناني إلى من ساهم في تحقيق هذا العمل المتواضع ،ونخص بالذكر الأستاذ الدكتور بارك الله له في عمره وأبقاه لغيرنا من الطلبة "عبد القادر بن عزة "الذي لم يبخل علينا بتوجيهاته وآرائه النيرة طوال بحثنا هذا مع تمنياتنا له بالتوفيق والنجاح.

مدخل

أدب الرحلة: المفهوم والتطور

1- المفهوم:

***تعريفه:**

لغة: "أصل كلمة الرحلة في اللغة من مادة رَحَلَ الرّحْلُ مركب للبعير والناقة وجمعه أرْحُل، يقول طرفة في هذا:

جازت البيد إلى أرحُلِنا آخر الليل بيعفور خدِر

والرَّحْل :مسكن الرَّجل وما يصاحبه من أثاث ،والترحّل والارتحَال:الانتقال وهو الِرحلة والرُحلة، والِرحلة اسم للارْتحال الميسّر يقال: ِرحلتنا ورَحل فلان وارْتحل وترحّل"[1]

"أما مفهومها في قاموس المحيط:من الرّحلُ:مركب للبعير كالرَّاحول جمع أرحُل ورِحال :مسكنك وما تسحبه من الأثاث والرحالة ،وارْتحل البعير سار ومضى، والقوم عن المكان انتقلوا"[2]

"والرّحل أيضا رَحل البعير وهو أصغر من القنب والجمع الِرّحال، رَحَل البعير سدّ ظهره الرحل وبابه قطع، ورَحل فلان وارْتحل وتَرَحّل بمعنى، والاسم الرّحيل.الرَّاحلة، والرّاحلة الناقة التي تصلح بأن ترحل"[3]

1-ابن منظور – لسان العرب –مج 11 – دار صادر، بيروت1955-ص 174 -175 - 278

2-الفيروز أبادي –القاموس المحيط –ج3 –دار الجيل ،بيروت -1997 ص394

الرازي- مختار الصحاح –دار مكتبة الهلال ،بيروت،دط ،1988 –ص2733-

اصطلاحا:إشتمل أدب الرحلة على عدة تسميات منها:الأدب الرحلي ،أدب الرحلات ،الأدب الجغرافي ،أدب المكان ،أدب الأسفار ،الأدب العجائبي ،لكن لها مضمون واحد .

" احتاج الناس قديما إلى معرفة الطرق والبلدان ،إما للتجارة وإما للفتوحات، فكان عليهم أن يلجؤوا إلى التجار والفاتحين ،لجمع ما لديهم من معلومات ،فلفظة جغرافية بحد ذاتها كافية للدلالة على أن نبعت هذا الفن ليست عربية ،فكل ما ذكر للعرب قبل نقل الجغرافية إلى العربية ،وصف الطرق والبلدان والمدن ،أما أول واضعي أساس هذا العلم فهم الفينيقيون أقدم تجار العالم وأكثرهم أسفارا ،فقد اطلعوا أثناء أسفارهم على أحوال من البلدان وعرفوا المسافات بينهم ،واطلعوا على تواريخ شعوبها وأخبارهم –فهاهم رجال الاسكندر في حملتهم على العالم يشتغلون بجمع أخبار أواسط آسيا وأعاليها لغرابتها - ومعنى ذلك أن هناك بعض الإشارات تقول أن الجغرافيا وأدب الرحلات كانت موجودة قبل العرب ، فكانت عند الفينيقيين واليونان، لكن العرب طوروها بأفكارهم وتجارتهم ورحلاتهم"[1]

وهناك البطالسة والرومان وغيرهم يعملون عمل من سبقهم من كل ذلك تجمع على مرور الأجيال معلومات متقطعة ،ثم توجهت الجهود إلى جمعها وترتيبها وضبط أجزائها وجعلها علما ،وكان أول من فعل ذلك ارتيستين اليوناني

[1] جورج غريب –ادب الرحلات تاريخه وأعلامه – دار الثقافة –بيروت –ط1 1966 ص25

(ت 196 ق. م)وعقبه كثيرون أمثال الرحالة استربون والجغرافي بلينوس حتى جاء بطليموس القلوذي في أواسط القرن الثاني للميلاد فألف كتابا وافيا في الجغرافية .

" فلما جاء الإسلام ،كان هذا الكتاب مسند للباحثين في تقويم البلدان وهو نفسه ترجمه العرب في العصر العباسي وسموه المجيسطي، وإلى هذين الكتابين خاصة رجعوا إليهم في كتاباتهم في علم الجغرافية"[1]

" ولقد تعددت مفاهيم أدب الرحلة بتعدد الاختصاصات، إذ لا يوجد مفهوم شامل لهذا المصطلح، فالمؤرخون يرونه جزء من علم التاريخ، فهو حافل بالمادة التاريخية، فقد بسط الأضواء على العديد من الشخصيات مثل شخصية صلاح الدين الأيوبي وعبقريته ، فهو يحكي لنا تاريخ الأمم والشعوب ،فالرحالة عندما يدرس شعبا لابد أن يعرف تاريخه وماضيه .

أما الجغرافيون يدرجونه ضمن علم الجغرافية فهو يكشف لنا عن الأماكن و المسالك والطرقات وكذلك معرفة الأقاليم،وكذلك يدخل ضمن علم الاجتماع ،فهو يبرز لنا عادات وتقاليد المجتمع ،أما علماء الاقتصاد يدرجونه ضمن علم الاقتصاد لأن العرب كانوا يخرجون من جزيرتهم مرتين في العام على الأقل ضمن قوافل تجارية ،وهي رحلة الشتاء والصيف وكذلك رحلتهم إلى الحج الذي كان يعتبر مركز التبادل التجاري لاختلاف الأجناس والسلع .

[1]-جورج غريب – أدب الرحلات تاريخه وأعلامه – (مرجع سابق)ص 62

كما أنها تمثل مصدر الرزق للإنسان منذ أن خلق وهو في رحلة من منطقة إلى أخرى، يبحث عن الأشياء ويكتشفها ويواجه المغامرات والمصاعب ويقطع المسافات، وأول رحلة قام بها هي البحث عن الطعام والانتقال من موضع إلى آخر لان الإنسان بطبعه محب للحركة هذا ما يجعله ينمي أفكاره ويتطلع إلى الأفاق البعيدة ".[1]

والأهم من ذلك يعتبر مصدر من مصادر الأدب العربي، فهو يعتمد على عنصر أساس وهو القصة التي تسرد لنا أثناء الرحلة بالإضافة إلى ما يتضمنه من أسلوب.

كما أن الرحلة كانت تعتبر أداة للحج ومصدرا لطلب العلم والمعرفة ويمكن القول أن أدب الرحلة مفهوم واسع لا نستطيع حصره في دائرة ضيقة لما يتضمنه من علوم تشمل جميع نواحي المعرفة الإنسانية.

2- تطور أدب الرحلة:

1- الرحلة عند القدماء :

"لقد ظل الإنسان على مدى عصور يتطلع بعينه إلى آفاق البعيدة، ولا يكف عن التفكير فيما تضمنه من الخلق والموجودات، وفيما تحمله من الكنوز والخيرات، خاصة حين تضيق به الحال ويجف الماء أو تبخل الطبيعة عليه بما يملأ بطنه ويسعد قلبه "[2]

1- عبد الصمد عزوزي –أدب الرحالة الجزائريين في الخمسية الهجرية الثانية –رسالة ماجستير ،مخطوط ، كلية الآداب واللغوم الإنسانية،تلمسان2003-ص 5 -7

2- فؤاد قنديل –أدب الرحلة في التراث العربي –مكتبة الدار العربية للكتاب –القاهرة –ط2- -2002 ص17

"وهو إلى جانب ذلك متشوق إلى معرفة موضع الشمس من أين تشرق والى معرفة مسكنها الذي إليه تغرب، وحريص على أن يعرف من أين ينبع النهر الذي يتدفق في أرضه والى أين ينتهي"[1]

وإذا كان العالم اليوم قد أصبح قرية صغيرة، فان العالم في الماضي كان قرية كبيرة مبعثرة فوق رقعة جغرافية هائلة من المعمورة، ولم يكن من سبيل لمعرفة الأحوال خارج القرية الواحدة إلا الارتحال، والحق أن الإنسان منذ أن يولد حتى يموت في رحلات دائمة تعددت أشكالها بمرور الأيام وتتغير الظروف والأحوال،

بل إن لحظات ميلاده تعد رحلة من رحم الأم إلى دنيا البشر،وهناك رحلات داخل الوطن كالانتقال من قبيلة إلى أخرى ، أو من قرية إلى المدينة أو من البدو إلى الحضر ،ورحلات من داخل الوطن إلى خارجه وتتسع مساحة الحركة وتمتد

الرحلة لتصبح رحلة من الأرض إلى القمر والكواكب .

ويشير كثير من المؤرخين إلى أن العرب قبل الإسلام كانت لهم تجارة نشيطة سافروا لها خارج أوطانهم برا وبحرا واغلب الظن أنهم عرفوا الملاحة والإبحار منذ القديم ،واشتهروا بالتجارة مع شعوب إفريقيا والهند وما وراءها ،كانت للعرب رحلات تجارية مزدهرة خاصة شمالها وشرقها ،أيضا في شرق الجزيرة، حتى مع العراق و الشام واليمن ، وان لم تدون أخبار هذه الرحلات تدوينا خاصا شاملا لها أو جامعا اللهم إلا ما ورد متناثرا في قصائد الشعر وكتب اللغة ، وعن بعض هذه الرحلات يذكر القران الكريم رحلات قريش الشهيرة .

1- فؤاد قنديل –ادب الرحلة في التراث العربي– ص18

<<لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف>>[1]

"كان السبئيون أقدم الأقوام العربية التي تخطت عتبة المدينة ،فقد عرفوا طرق البحر الجنوبي وتعرجات سواحله وموانئه ،فامتلكوا بعد ذلك تجارة خلال القرون الثلاثة عشرة الأخيرة - قبل ميلاد المسيح - وكانت الانتصارات التي أحرزتها عرب الجنوب انتصارات تجارية واقتصادية شأنهم في ذلك شأن الفينيقيين "[2]

ونتحدث عن الرحلات التي انطلقت من مصر ،فهناك الدلائل التي تشير إلى رحلة بحرية رسمية إلى بلاد بنت في عهد خوفو فرعون مصر الذي حكم حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد ،وهناك الرحلة الشهيرة في عهد الملكة حتشبوسون إلى بلاد بنت في حوالي 1500 سنة قبل الميلاد لاستيراد البخور والعطور .

وقبل هاتين الرحلتين فهناك إشارات إلى رحلة بحرية إلى الشام وجزر البحر الأبيض المتوسط حوالي الألف الرابعة ق.م تمت في عهد سنفروا سنة 3200 ق.م وكانت مؤلفة من أربعين سفينة ، قد كلفها الملك باستحضار الأخشاب اللازمة لصناعة السفن.

1- سورة قريش الآية (1-4)

2- د. فؤاد قنديل –أدب الرحلة في التراث العربي –(مرجع سابق) ص26

وهناك الطرق البرية في اتجاه جنوب القارة إلى بلاد كوش وبلاد يام والتي تدل على تنظيم رحلات اتخذت هذه الطرق سبيلا لبلوغ أهدافها سواء للتجارة أو البحث عن الفارين أو البحث عن منابع النيل ومثل هذه الرحلات البرية تمت عبر سيناء وفلسطين إلى الشام ووادي الرافدين ،ولا بد أن هذه الرحلات متشابهة كانت تتم عبر العراق وبلاد فارس وبين الشام واسيا الصغرى .

ولكن الرحلة القديمة مهما بلغت من الحيوية والازدهار فلا نستطيع مقارنتها بالرحلة بعد الإسلام لأنها اتخذت شكلا آخر من أشكال التطور والتحضر وانتقلت إلى عصر جديد.

"الرحلة القديمة امتازت بخصوصياتها رغم الصعوبات التي واجهتها لكنها بحاجة إلى التدعيم والتعديل اللطيف مقارنة مع الرحلة في العصور الإسلامية التي ازدهرت بفضل الفتوحات الإسلامية والرحالة العرب المسلمين"[1]

معنى كل هذا أن"الرحالة في القديم كانت تواجههم صعوبات وعواقب ولكن بالرغم من ذلك كانوا يتخطون هذه العقبات بشتى الوسائل في سبيل المعرفة والعلم "[2]

---

[1]- د. نوال عبد الرحمن الشوابكة –أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن 9ه –دار المأمون ،عمان –ط1 -2008 –ص17

[2]- د. قصي الحسن - من معالم الحضارة العربية الإسلامية – المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت – ط1 -1993– ص85

2- الرحلة عند العرب المسلمين :

"جاء في القران الكريم أن قبيلة قريش كانت لها رحلتان - رحلة الشتاء والصيف - والباحثون مجمعون على أن هاتين الرحلتين كانتا للتجارة وذلك ان أهل مكة كانوا تجارا من الدرجة الأولى " [1]

"وقد اهتم المكيون بالتجارة وساهموا فيها وشجعهم على ذلك قدسية مكة وإقبال الناس عليهم للحج لأنها مركز تجاري مهم بين اليمن والشام ،وقد ازدادت أهمية مكة منذ القرن الخامس ميلادي عندما نشبت حروب دامية بين الفرس والروم ،فتعرقل نقل بضائع الصين والهند عن طريق العراق ،واخذ الروم يجلبون تلك السلع عن طريق اليمن ،حيث كانت تنقل منها برا إلى الشام ،فتمر بمكة المكرمة ومنها إلى الشام .

ولم يكتف أهل مكة بان تكون مدينتهم محطة للقوافل بل كانوا يقومون بأنفسهم بالتجارة، وقد ساهم معظم أهل مكة بالتجارة، وشارك الرسول الكريم في بعض قوافلها " [2]

لكن الفتوحات الإسلامية جاءت بالجديد بالنسبة إلى بقاع أخرى، امتدت الفتوح حتى ضمن وادي السند ، وما وراء النهر شرقا والأندلس غربا وأجزاء من شمال إفريقيا .

---

1 - د. نقولا زيادة - الجغرافية والرحلات عند العرب -الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت -ط2 -1980 -ص137

2- د. محمود شاكر -موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم -ج1 -دار أسامة، عمان -ط1 - 2002 – ص376

وبعد إن استقر الإسلام في رقاع إمبراطوريته ، ونشأت مراكز للعلم في الأجواء العربية وغير العربية منه، رحل الناس في طلب العلم من مكان إلى آخر، فهذا البغدادي شق الرحال إلى دمشق ،هذا دمشقي يقصد بخارى ،وهذا التونسي يرحل إلى القاهرة .....

فأدب الرحلة تعرض إلى ما تعرض له نواحي الإنتاج العلمي الأخرى في هذه الرقعة الواسعة وهذه القرون الطويلة، فضاع منه الكثير لكن ثمة أمل بان يكون في خزانات الكتب في أصقاع العالم العربي كثيرا مما لم نعرف.

وبفضل سهولة السفر والانتقال في ربوع العالم الإسلامي الفسيح، أنتج الإسلام العديد من المعلومات الجغرافية أوفر مما كان في متناول الحضارات المتقدمة ثم صاغ هذه المعلومات في إطار الأنماط النظرية التي ورثها عن الإغريق والفرس معا.

ونستطيع القول إن المسلمين بدؤوا بوضع الجغرافية قبل وقوفهم على كتاب بطليموس ،ودليلنا على ذلك أن العرب من أكثر الأمم فتحا وغزوا وهم تجار من زمن الجاهلية ،فمن الطبيعي أن تزداد تجارتهم بازدياد الفتوحات الإسلامية.

وهناك أسباب خاصة يمتازون بها منها:

1- الحج وهو على المسلم إن استطاع إليه سبيلا

2- الرحلة في طلب العلم ،وذلك يستلزم معرفة الأماكن والمناطق،والى ذلك التفت العرب في تاليفاتهم الأولى في الجغرافية .

3- اختلاف العرب في طرق الفتح باختلاف البلاد للحكم في اخذ الجزية، وتحصيل الخراج وما إلى ذلك،مما يستدعي معرفة التاريخ والجغرافية ،لم تبلغ الجهود المختلفة لدراسة الجغرافية مرتبة العلم إلا بعد أن عرف العرب" المقدمة الجغرافية" لبطليموس ، والتي يرجع أقدمها إلى خرداذبة سوى كتاب محمد بن موسى الخوارزمي ،وقد صيغ كتاب بطليموس في هيئة جداول على مثال الزيج الفلكي وأكمله بمعلومات عن العالم الإسلامي" .[1]

وعندما نقلت الجغرافية إلى العربية، احتدي العرب على مثالها وزادوا عليها ما عرفوه من قبل، وتحققوا الأشياء بأنفسهم فأصلحوا كثيرا من مغالط بطليموس، على أن هذا العلم لم ينضج إلا في القرن الرابع الهجري أي زمن نضج التاريخ.

1- د. سيد حسين نصر –العلوم في الإسلام –تر مختار الجوهري –دار الجنوب ،تونس –دط -1978 – ص44

القرن الثالث هجري| التاسع ميلادي:

كان معظم رحالة وجغرافي النصف الأول من القرن 3ه من اللغويين، وأبرزهم هو اللغوي والمؤرخ هشام الكلبي (ت حوالي206ه) الذي يعد نموذجا للرحالة الخبير بالجزيرة العربية، وقد صنف مجموعة من المؤلفات أهمها كتاب الأقاليم والبلدان الكبيرة والبلدان الصغيرة، ثم جاء الأصمعي (ت عام 216ه)ألف كتاب عن الأنواء ،رسالة في صفة الأرض والسماء والنبات ، وعرام بن الاصبغ له كتاب أسماء جبال تهامة ومكانتها، واحمد بن محمد الطيب السرخسي، ألف رسالة في البحار والمياه والجبال كما له كتاب المسالك والممالك.

"بعد هؤلاء تأتي كوكبة من الرحالة والجغرافيين البارزين مثل الرياضي والمهندس محمد بن موسى المنتم (ت 259ه) قام برحلتين الأولى إلى آسيا الصغرى لفحص كهف الرقيم الذي لجأ إليه مجموعة من الشبان هروبا بدينهم، عرفوا باسم أهل الكهف،والثانية مع سلام الترجمان لزيارة سد يأجوج ومأجوج" [1]

ونصل بعد هؤلاء إلى مجموعة من الرحالة حرصوا على ما حصلوا من علم فأودعوه بطون الكتب والذين يمثلون بداية حقيقية لعلم البلدان ،في مقدمتهم ابن خرداذبة ،والبلاذري،ابن رسته ،ابن الفقيه ، اليعقوبي، والجيهاني وغيرهم .

1- د. فؤاد قنديل –أدب الرحلة في التراث العربي- (مرجع سابق)-ص70

القرن الرابع هجري|العاشر ميلادي:

" يعتبر هذا القرن من الناحية السياسية عصر الاضمحلال النهائي للخلافة الإسلامية، لكنه من ناحية أخرى يعتبر أيضا عصر ازدهار الحضارة العربية أو النهضة الإسلامية، ولا يخفى على القارئ أن متز يقصد بانهيار الخلافة أي مركزية الخلافة التي يحكم فيها الصغير الكبير.

شهد هذا القرن ظهور الرحالة كبير المعروف بالمسعودي ،صاحب كتاب مروج الذهب (ت 345 ه|956 م) ، اعتمد الأندلسيون عليه في اقتباس بعض النصوص المتعلقة بجغرافية الأندلس،ومن ثم تأثروا به في طريقة تناول المعارف الجغرافية" [1]

" وكذلك ابن فضلان الذي أرسل في بعثر طلبها ملك البلغار من الخليفة المقتدر، وكان كثير من البلغار قد دخلوا في الإسلام ،وكانوا يقيمون حينئذ في حوض نهر القولجا أو كما يسميه العرب نهر أتلا ، قام ابن فضلان بمهمته خير قيام ، ثم عاد بعد مدة إلى بغداد ، فوضع كتابا في وصف رحلته إلى القوم ، وألم إلماما تاما دقيقا بأحوالهم وعاداتهم وبكل ما بديارهم من مظاهر الحضارة والعمران ، ولم يصف شعب البلغار وحده ،بل وصف أيضا الخزر والروس ، نشر هذه الرسالة بعض المستشرقين في القرن الماضي " .[2]

---

[1]- د. طه عبد المقصود –الحضارة الإسلامية "دراسة في تاريخ الأمم الإسلامية "-مج 2 - دار الكتب العلمية،بيروت -ط 1- 2004-ص 610

2 - د. شوقي ضيف –الرحلات – دار المعارف ،القاهرة –ط4 - دت –ص49-50

"وتمثل رحلة ابن سليم الأسواني أهمية جوهرية لأنها تعد أول رحلة إلى بلاد النوبة، تصل إلينا أخبارها، وكان بعث به القائد جوهر الصقلي في مهمة دبلوماسية، إلا أن الكتاب لا يزال مفقودا ،ولم يبقى منه غير شذرات يحتفظ بها كل من المقريزي وابن إياس .

كما شهد هذا العصر ظهور كتاب مهمين كالاصطرخي وابن حوقل محمد بن علي الموصلي صاحب كتاب صورة الأرض "[1]

القرن الخامس هجري|الحادي عشر ميلادي:

في هذا القرن كانت رحلات مهمة قام بها الطبيب البغدادي ابن بطلان عام 404ه إلى الشام ومصر وايطاليا والقسطنطينية،له آراء في الدين والفلسفة والتاريخ،واحمد بن عمر الغدري الذي ارتحل إلى الشرق وعاش في مكة تسعة أعوام،خلف لنا كتاب نظام المرجان في المسالك والممالك "وأبو عبيد الله البكري(ت 487 ه)له معجم ما استعجم وكتاب المسالك والممالك الذي وصل إلينا منه القليل،وتعرض كذلك إلى جغرافية إفريقيا ومصر والعراق وما وراء النهرين".[2]

[1] -المسعودي –مروج الذهب ومعادن الجوهر –تح عفيف نايف خاطوم –ج 1 –دار صادر ،بيروت –دط –2005 ص ب د
[2] - د. احمد أمين –ظهر الإسلام-ج3-مكتبة النهضة المصرية، القاهرة-ط3-1962-ص290.

القرن السادس الهجري \الثاني عشر ميلادي:

يكاد هذا القرن ينافس القرن الرابع في حجم الانجاز الكبير على صعيد الجغرافيا وأدب الرحلة، إذا كان القرن الرابع قد تميز بعدد الرحالة وأهميته للآثار التي خلفوها والمناهج التي اتبعوها في جمع المادة وتدوين المشاهدات.

"يبدأ هذا القرن بظهور رحالة وهو أبو حامد الغرناطي الأندلسي(عام 508ه)، يطوف بالعالم الإسلامي خاصة مناطقه الشمالية،حيث قضى فيها أكثر من ربع قرن،نشر الإسلام وصنف كتابين هما:تحفة الألباب ونخبة الإعجاب،والمغرب عن بعض عجائب المغرب،والشريف الإدريسي (ت 560 ه)صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق". [1]

وقد كان العالم الفقيه أبو بكر العربي - (ت543 ه)- أول من استخدم لفظ رحلة في عنوان مؤلف ،حيث وضع أدب الرحلات بالصورة الفنية المأمولة.

"وابن جبير - (ت 614 ه)- الذي اكتملت على يديه الملامح الأساسية لأدب الرحلة العربي ،ولقد اكتسبت رحلته تذكرة الإخبار عن اتفاقات الأسفار شهرة عظيمة بين كتب الجغرافيا والرحلات بسبب التزام صاحبها بالأمانة العلمية إلى جانب دقة ملاحظاته الغريبة الشأن ومقدرته الفائقة على تملك اللغة وحسن التعبير عن الغرض بأقصى السبل حتى اعتبره البعض رائد هذا الفرع من علم الجغرافيا

[1]-د.احمد علي الملا-اثر العلماء المسلين في الحضارة الأوربية-دار الفكر ،دمشق-ط1-1979-ص.172

العربية وهي الرحلة في سبيل قضاء فريضة الحج ، فابن جبير يقدم معلومات أصيلة عن وصف الحرمين كانت مرجعا لمن أتى بعده "[1]

القرن السابع هجري \الثالث عشر ميلادي:

"لعل أهم انجازات رحالة في هذا القرن هو ياقوت الحموي له كتاب معجم البلدان (1179 -1229) نشر عدة مرات بالبلاد العربية ،خاصة بالقاهرة وبيروت ومنه مختصر بعنوان مراصد الاطلاع الذي يعد قمة في المعرفة الجغرافية".[2]

كذلك الرحالة عبد اللطيف البغدادي - (ت629 ه)- له كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ،ويوسف ابن يعقوب الدمشقي المعروف بابن المجاور - (ت696 ه)- له كتاب تاريخ المستبصر، والرحالة

الأندلسي ابن سعيد (ت 673ه)، ومحمد العبدري الذي بدأ رحلاته 688 ه له كتاب الرحلة المغربية، الذي اشتمل على أدق وصف لبلاد شمال إفريقيا .

القرن الثامن هجري \الرابع عشر ميلادي :

"من رحالة هذا القرن شمس الدين الدمشقي - (ت 727 ه)- صاحب كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ،وابن رشيد الفهري ،ومحمد التيجاني ، النويري صاحب موسوعة نهاية الأرض في فنون الأدب ، وأب الفضل العمري صاحب مسالك الأبصار في ممالك الإبصار ، والقلقشندي صاحب كتاب صبح الاعشى ،

---

[1]ـد- سعد زغلول عبد الحميد –العمارة والفنون في دولة الإسلام –منشأ المعارف ،الإسكندرية –دط -1986 –ص60

[2]- د. شارل بلا –تاريخ اللغة والآداب العربية –تر ابن وناس –دار الغرب الإسلامي ،بيروت –ط1 -1997-ص187

والرحالة الشهير ابن بطوطة أبو عبد الله الطنجي صاحب تحفة النظام في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ".[1]

أما آخر الرحلات المهمة فهي دون جدال رحلات العالم والمؤرخ المشهور عبد الرحمن ابن خلدون - (ت 808 ه)- التي أوردها ضمن كتابه التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا.

وهناك رحلات أخرى في هذا القرن ، منها رحلات عبد الباسط بن خليل الظاهري المصري ،الحسن بن الوزان المشهور باسم ليون الإفريقي، رحلة أبي البقاء البلوى ،احمد المقري ،ومحمد التأريخي والتمجروتي ، ولكن هذه الرحلات تظل في أحسن حالاتها غير جديرة بمقارنتها بالرحلات الكبرى التي سبقتها .

"ولما كانت الرحلات العربية وآدابها إحدى مزايا الحضارة العربية فقد تقلصت نسبيا هي الأخرى خلال القرنين التاسع والعاشر هجريين ، ولا نكاد نذكر إلا رحلتي النابلسي والطرابلسي والعياشي ، وذلك لعدة أسباب:

1-المشكلات السياسية والاقتصادية التي لحقت بالعالم العربي .

2-النكوص الثقافي والحضاري والتدهور الإنساني بشكل عام .

3- زوال دولة الإسلام من اسبانيا .

1-د. فؤاد قنديل –أدب الرحلة في التراث العربي –(مرجع سابق) ص 79

4-سقوط كل دولة تحت عبئ مشكلات الداخلية والنزاع على السلطة .

5- بدأ الكشوف الجغرافية الكبرى واكتشاف العالم الجديد في الأمريكيتين وبداية صعود حضارة أوربا" [1]

3-الرحلة الحديثة:

إن الرحلات العربية سرعان ما عادت إلى البزوغ والازدهار من جديد في ثوب مختلف مع السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وتحديدا بعد الحملة الفرنسية على مصر.

" قد بدأها محمد عمر التونسي سنة 1903 م برحلة إلى بلاد العرب والسودان ضمنها في كتابه تشحذ الأذهان ،تلاه الطهطاوي الذي عبر طريقا فسيحا للرحلة بكتابه تلخيص الإبريز على درجة كوكبة كبيرة ومتألقة من الرحلة .

إن الرحلات التي يممت وجهها على الأغلب - صوب جهة واحدة هي جهة الغرب- حتى أنها أصبحت قاصرة عليه ، وكأن الأرض ليست فيها إلا غربها ، وقليل جدا، إن لم يكن من النادر من يتطلع إلى الشرق ، ولعل هذا مرجعيته التقدم الكبير الذي أحرزه الغرب خاصة بعد الثورة الصناعية ، فلم يعد طالبوا العلم يشدون الرحال إلى بغداد ودمشق والقاهرة كما كان في العهد الماضي ، وإنما أصبحوا جميعا ينطلقون إلى باريس ولندن وغيرها من البلدان بمرور الوقت " . [2]

---

[1]- فؤاد قنديل - أدب الرحلة في التراث العربي –(مرجع سابق) ص 80

[2] – المرجع نفسه ص 81

الفصل الاول

- ابن فضلان

- رحلته

-الرحلة:الخصائص والمميزات

الفصل الأول

1- ابن فضلان:

هو احمد بن فضلان بن راشد بن حماد،مولى لفاتح مصر محمد بن سليمان، يقول ياقوت انه كان مولى محمد بن سليمان ثم مولى أمير المؤمنين ، فهو من العجم الموالي .

"يرجح انه كان في الأربعينيات من عمره عندما كلف بمهمته، يخيل إلينا أن بعثة مثل بعثته كانت تستلزم رجلا ذا ثقافة معقولة ، وهو ما نظن حاله، وهو ما يدل عليه وصفه المتأني للبلدان والتقاليد التي شاهدها عيانا ، نعتقد أن هيئته وبزته كانتا في غاية الرصانة ، اختير لمقابلة ملوك الصقالبة والخزر والروس لان شكله كان مقبولا بالنسبة إليهم وقريبا من أشكال الشعوب التي زارها ".[1]

لم يرد توثيق لحياة ابن فضلان في أي من المراجع التي بين أيدينا ، بالضبط مثلما لا توجد إلا اقل التفصيلات عن حياة المقدسي صاحب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) الباهر، ولا حياة الرحالة أبي دلف ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى اللامبالاة التي كانت تميز نظرة الثقافة العربية إلى أعمال الرحالة العرب ، وعدم اعتبار الكتابة في أدب الرحلة فنا رفيع المستوى يستحق إدراج مؤلفيه من بين مضفي ضروب الأدب الأخرى المبجلين والمؤرخ لهم بأكثر التفاصيل وأدقها (الفقهاء ،الشعراء، الأطباء ، النحويين ...)

---

[1] احمد بن فضلان –رحلة ابن فضلان الى بلاد الترك والروس والصقالبة – دار السويدي للنشر والتوزيع ، ابو ظبي –ط1 -2003 ص29- 30

2- رحلته :

"تم إعداد هذه السفارة بطلب من ملك الصقالبة المس بن شلكي بلطوار إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله العباسي " [1]

" يرجوه العون ضد ضغط الخزر عليهم من الجنوب، وان ينفذ إليهم من يفقههم في الدين ويعرفهم بشعائر الإسلام الذي اعتنقوه منذ عهد غير طويل،وينشئ لهم مسجدا ويبني لهم حصنا يتحصن فيه الملوك من مخالفيهم ،وهم ملوك الخزر "[2]

وما كان في وسع الخليفة أن يرفض مثل هذا الطلب ،وجاراه في ذلك وزيره حامد بن العباس،فرأى الاثنان في مثل هذا التحالف خيرا ،فانتدبا وفدا للقيام بما طلبه ملك الصقالبة وكان الوفد يضم أربعة رجال رسميين هم:

1-سوسن الرسي:الذي يبدو من نسبه الرسي انه من بلاد الروس.

2-بارس الصقالبي:ويدل اسمه بوضوح على انه سلافي.

3-تكين التركي:وهو تركي من دون شك،يجيد لغة الأتراك التي يمر الوفد ببلادها في طريقه إلى الفولغا وكان يعمل حدادا في خوارزم.

4-احمد بن فضلان:الذي كان رئيسا للوفد وكان يجهل اللغات الأجنبية كما يقول هو نفسه ،إلا انه لم يكن عربيا البتة فهو احد الموالي ،وربما كان من أصل فارسي ،على انه كان مولى ،لا يعني كما نرى انه كان يتقن اللغة العربية لوحدها،رغم تبحره بها،ولعله كان يتقن لغة أجداده .

1-د. فؤاد قنديل - أدب الرحلة في التراث العربي –(مرجع سابق) ص 165.

2-د.نقولا زيادة –الجغرافية والرحلات عند العرب(مرجع سابق)-ص 141

الفصل الأول

"كما ضم الوفد بضعة مرافقين من الفقهاء والمعلمين والغلمان ،وهذا ما يظهر في قول ابن فضلان :<<فندبت انأ لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما اهدي إليه والإشراف على الفقهاء والمعلمين>>"[1]

"غادر الوفد بغداد في 11صفر 309ه\21 يونيو921 م،ووصل بادئ الأمر إلى بخارى ثم اتجه إلى خوارزم ثم ذهب بعد ذلك إلى البلغار،فوصل إلى عاصمتهم في 12 محرم310ه \ 18 مايو 922 م،وقد مرت في طريقها بهمدان والري ونيسابور ومرو وبخارى،حيث التقى ابن فضلان في سبتمبر 921 م بوزير السامانيين والعالم الجغرافي الشهير الجيهاني،ثم صاروا مع نهر جيجون إلى خوارزم عند بحر ارال وعبروا صحراء أوست أورت ثم نهر يايق،فوصلوا إلى نهر القولجا ،أما تاريخ وخط سير الرجعة فليس معروفا لدينا ،إذ إن خاتمة الكتاب قد امتدت إليها يد الضياع".[2]

لا يبرز ابن فضلان كبطل رئيسي في الرحلة،إلا أنه كتب الرحلة ببساطة،وهو لم يجر طمس رفقته الآخرين لأي سبب متعمد أو محسوب ،العكس تماما فلولا رحلته لما عرفنا عن أولائك أية شذرة،إن كتابته للرحلة في الغالب ،لم تتم لكي يبني لنفسه مجدا أدبيا،ولا لكي يعيد الاعتبار لنفسه كما يقول البعض،خاصة وإننا لا نعرف له مؤلفا أخر غيرها.

لقد كان سفيرا وحسب، سجل لنا ملاحظات قيمة عما شاهد، البعض منها دقيق تماما والأخر اقل دقة.

---

1 -اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي-تاريخ الأدب الجغرافي العربي-تر صلاح الدين عثمان هاشم-مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة – دط-1963-ص186

2-د.اسماعيل العربي –تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر –المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر-دط-1986-ص 27.

"وقد اكتشفت أول نسخة خطية من رسالة ابن فضلان في مدينة مشهد عام 1924،لكن المستشرق الروسي غراهان سبق أن ترجم مقتطفاتها من ياقوت عام 1823،كما ترجمها العالم التركي زكي وليدي طوغان إلى الألمانية ونشرها في الأصل العربي، ورافقها بدراسات وتعليقات مهمة،وأفضل طبعة للرسالة تمت على يد الأستاذ الدكتور المرحوم سامي الدهان".[1]

أهمية الرحلة:

إن رحلة ابن فضلان من أهم الرحلات التي أرخت لتاريخ الشعوب وحضارتهم وثقافتهم الشعبية ويظهر هذا في:

1-الجوانب الاجتماعية:

عرضت الرحلة موضوعات اجتماعية، ارتبطت بأفعال الناس وبأخلاقهم، حياتهم الاجتماعية، وغالبا ما كانت ملاحظات الرحالة تخص الناس الذين لقاهم وتعامل معهم أو سمع بهم أثناء رحلته، وهو ما جعل تلك الملاحظات تأتي منطبعة بأحاسيس الرحالة وأحكامه ومواقفه الشخصية.

وتحفل الرسالة بمادة اثنوغرافية جزيلة الفائدة ومتنوعة بصورة فريدة،إذ اهتمت بعدد القبائل التركية البدوية الضاربة في فيافي آسيا الوسطى وعددا من الشعوب التي كانت تلعب آنذاك دورا أساسيا في تاريخ أوربا الشرقية كالبلغار، والروس، والخزر.

---

[1]-د.عبد الرحمن حميدة-اعلام الجغرافيين العرب-دار الفكر،دمشق-ط2-1980 -ص200

كما تزود التاريخ العالمي بشذرات مهمة عن أنماط معيشة شعوب قلما سجلت،فهي تحتوي على أول وصف انتروبولوجي يعتمد عليه للبلدان التي زارها،وانطلاقا من هذه الرحلة نستطيع معرفة أوضاع وأحوال سكانها معرفة دقيقة،فهي مرآة للأعاجيب.

فقد ألم ابن فضلان إلماما شديدا بكل ما يبرهن وضع هذه المجتمعات الاجتماعية،وبين مختلف طرق العيش التي كان ينتهجها الأقوام والشعوب في هذه البلدان في هذا الزمن.

فابن فضلان انتهج منهجا اجتماعيا ،يدعو إلى تحليل العمل في ذاته ووصفه وصفا خالصا قصد تحديد الرؤية التي يعبر عنها.

كما اظهر هذا الرحالة أن هناك اختلافا في الطبقة الاجتماعية في هذه البلدان، وبالتالي اختلافا في الثقافة التي تميزت بها كل طبقة في هذه المناطق، فقد ركز على الهوية الاجتماعية لكل هذه الأقوام.

فقد اهتم بحياة هذه الشعوب ومعتقداتهم وتصوراتهم النفسية، بين في هذه الرحلة الواقع المعاش في هذه الحقبة، والواقع المستمد من معايشة الآخرين، وهذا ما جعلها أداة تفاعل حضاري ووسيلة من وسائل التقدم.

2-الجوانب الثقافية:

تحتوي الرسالة على محاميل ثقافية قيمة،تمارس سطوتها،تهمش القارئ،وتلقي حضوره في الدورة الثقافية،فقد بينت العقلية السائدة في هذه المرحلة التاريخية المهمة،التي تعتبر انطلاقة مهمة للأدب العجائبي.

ركز الرحالة اهتمامه وملاحظاته حول العادات والتقاليد التي تميز كل مجتمع من المجتمعات التي زارها أثناء رحلته، كما اهتم أيضا بوصف طبائع وخصال أهلها.

ألم إلماما دقيقا بأحوال أهل هته المجتمعات وعاداتهم،وكل ما بديارهم من مظاهر الحضارة والعمران،فوقف على سبيل المثال طويلا عند وصف حرق الروسيين لموتاهم واحتفالاتهم لحرق رؤسائهم،وما يضعون في ذلك من رسوم غريبة.

كما اهتمت الرحلة بالفولكلور الذي تميزت به كل الروس والصقالبة والخزر،مما جعلنا نطلع على ثقافة كل من هؤلاء التي لم تكن معروفة لولا هذه الرسالة.

وذكر عادات وتقاليد الصقالبة التي تدل على رقيهم الحضاري ،ومثال ذلك أن كل فرد كان يأكل على مائدة مستقلة ،كما كانوا يتمتعون بعلاقات ديمقراطية مع ملكهم الذي كان يتجول بدون حراسة ،ولم يكن يفرض ضرائب عالية على شعبه،

وكان الفلاحون يحتفظون بكل حصادهم تقريبا ،ومع ذلك عندما كانت أي وحدة من الجيش تقوم بأي غارة،تحصل أثناءها على غنائم فان الملك كان يقتسمها معهم.

كل هذه النقاط هي جوانب ثقافية ورد ذكرها في رحلة ابن فضلان، هدفت هذه الرحلة إلى"الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكل عن طريق هذه الرحلة، مما جعلها ثروة معرفية ثقافية كبيرة".[1]

3-*الجوانب التاريخية:*

تتجلى أهمية رحلة ابن فضلان في أنها تزود التاريخ العالمي بشذرات مهمة عن أنماط معيشة شعوب قلما سجلت، إنها تسد ثغرة تاريخية في هذا المجال، فتعتبر رائدا في الإشارة لتاريخ الشعوب الصربية والروس منهم على وجه الخصوص.

"كما تشمل الرسالة أول وصف يعتمد عليه للبلاد التي زارها، وذلك لما تتحلى به من قدرة كبيرة على الملاحظة وروح موضوعية لم تشبها الأخبار المبالغ فيها إلا في أحوال قليلة".[2]

فهي حافلة بالمادة التاريخية لأنها بسطت الأضواء على العديد من الشخصيات، مثل شخصية المؤرخ والجغرافي الجيهاني،كما تحكي هذه الرحلة تاريخ الأمم و الشعوب،فالرحالة عندما يعرج على شعب لابد له أن يعرف تاريخه وماضيه.

وقد شكلت لنا صورة حية للظروف السياسية التي سادت العالم الإسلامي، والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المجاورة لها في أواسط آسيا و الأصقاع البعيدة التي مثلت إطراف العالم المتمدن في ذلك العصر، كما سعت إلى التعريف بالعالم المكتشف.

---

[1]- ابن فضلان- الرسالة (مصدر سابق)-ص09

2-كال بروكلمان-تاريخ الأدب العربي-ج4-دار المعارف،مصر-دت-ص241

وهذا ما جعل لها حضورا تاريخيا تمثل في ذكر بعض القصص الشعبية المنتشرة في تلك المجتمعات، مثال ذلك اعتقاد الصقالبة أن مؤمني الجن وكفارهم يقتتلون كل ليلة (حسب رواية أجدادهم).

حرص ابن فضلان على ذكر الحكايات والأساطير، لكنه لم يصدقها ولم يجبرنا على تصديقها، ويظهر هذا في قوله:<<زعم ملكهم>>، "فالقص الشعبي مرتبط بحياة ومعتقدات الإنسان وتصوراته النفسية لتلك القصص" [1]

[1] ـد.فهيم حسين-التراث الشعبي في أدب الرحلة –مجلة المأثورات الشعبية،العدد5-دت-ص79

3- الرحلة :الخصائص والمميزات :

1- مسار الرحلة :

" نقصد بالمسار في الرحلة الاتجاه أو الخط الناتج عن حركة تنقل رحالة ما من مكان إلى مكان، ويتضمن المسار الطرق التي سار عليها الرحالة، ثم المواضع التي مر بها، أو التوقف عندها، كما يتضمن أيضا زمن الانطلاق ومكانه وزمن الوصول".[1]

ومن هنا نطرح السؤال الآتي: أي مسار اختط ابن فضلان ؟ للإجابة على هذا السؤال يجب تتبع الأماكن والمدن التي يذكرها ابن فضلان ،نسجل أن مسار الرحلة كما هي بين أيدينا الآن هو بلاد العجم والترك ،الصقالبة ،الروسية، الخزر.

وقد أثار هذا المسار الكثير من النقاش ، فقد كان يتوجب الحديث عن بلاد الخزر قبل الحديث عن بلاد الروس لان الطريق إلى الروس يمر أولا بالخزر، هل ضاع شئ من المخطوط؟ ، أم أن ابن فضلان نفسه لم يكن مهتما بأمر تسجيل شؤون

الروس والخزر مثل اهتمامه بالصقالبة هدف رحلته؟،وانه بالتالي سجل انطباعاته كيفما اتفق عن ذينك البلدين ، أم أن مخطوطة مشهد نفسها تعاني من خلل منطقي ما بسبب ناسخها ، أو تلف جزء منها.

وإذا صحت هذه الفرضية، فهل كانت النسخة التي وقعت بين يدي ياقوت تعاني هي أيضا من الخلل نفسه ؟ ، في اعتقاد الدكتور شاكر العيبي وفي يقينه ، أن ابن فضلان

1-د. سميرة ساعد –صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العهد العثماني –مقال-مجلة التراث العربي –اتحاد الكتاب العرب، دمشق -2005 –عدد97 –ص117.

قد كتب المخطوطة بهذا الشكل الذي نعرفه ، مدرجا انطباعاته وقصص رآها أو سمعها في البلدين المعنيين ،" ولم يزر البتة البلدان الاسكندنافية كما يزعم الكاتب الهوليودي كريكتون ميكائيل في كتابه أكلة الأموات ،مخطوط ابن فضلان عن خبرته بأهل شمال إفريقيا في عام 922 م ، وهو كتاب منشور عن مؤسسة بنتام بالاتفاق مع شركة ألفريدنوف المساهمة عام 1976 م كما ذكر الدكتور غيبة في الغلاف الخارجي ، الثاني من الكتاب التعريف الآتي: أكلة الأموات :الرواية الجديدة الرهيبة لمؤلف رواية السطو العظيم على القطار". [1]

اقترح الدكتور غيبة مخطط للرحلة بدلا من المخطط الذي نعرفه استنادا إلى النسختين العربية النرويجية والانجليزية.

<u>في الذهاب:</u>

*بلاد العجم والترك

*الروسية

*شمال أوربا واسكندنافيا

<u>في الإياب:</u> طريق العودة لبغداد

*بلاد الصقالبة

*إقليم الخزر

---

[1]- ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق - ص 17

ولو انه فعل وزارها لنقل من نقل عنه شذرة صغيرة ،ونعني بهذا ياقوت الحموي (1178 م-1228 م)والقزويني(605- 628 ه)(1184 -1261 م)المولع بالغرائب من كل نوع .[1]

ومن هذا كله نذكر المسار حسبما جاء في الرسالة :

1-*بغداد:*مكان الانطلاق، يقول ابن فضلان << فرحلنا من مدينة السلام يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت من صفر 309 ه>>

2-*النهروان:* هي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي ،يقول ابن فضلان << فأقمنا بالنهروان ليلة ورحلنا مجدين >>

3-*الدسكرة* : هي قرية كبيرة بضواحي نهر الملك غربي بغداد ،يقول : <<حتى وافينا الدسكرة فأقمنا بها ثلاثة أيام ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شئ >>

4-*حلوان:*توجد في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد، يقول << حتى صرنا إلى حلوان فأقمنا بها يومين>>

5-*قرميسين :*تعريب كرمان شاه ،يقول : <<وسرنا منها إلى قرميسين فأقمنا بها يومين>>[2]

1-ابن فصلان الرسالة (مصدر سابق)ص43

2- المصدر نفسه ص 34

6-*همدان :مدينة جبلية في بلاد فارس ،يقول:* : << ثم رحلنا فسرنا حتى وصلنا همدان فأقمنا بها ثلاثة أيام >>

7-*ساوة :مدينة حسنة بين الري وهمدان ،يقول ابن فضلان*: <<ثم سرنا حتى قدمنا ساوة فأقمنا بها إحدى عشر يوما >>.

8-*الري :مدينة قرب طهران ،* << *ومنها إلى الري ،فأقمنا بها احد عشر يوما*>>.

9-*خوار الري:مدينة كبيرة بينها وبين الري عشرون فرسخا، يقول:* <<*ثم رحلنا إلى خوار الري فأقمنا بها ثلاثة أيام*>>[1].

10- سمنان :من بلاد الجبل شمالي إيران ،يقول:<<ثم رحلنا إلى سمنان>>.

11- الدامغان:وهي قصبة بلاد قومس ،يقول:<<ومنها إلى الدامغان ،صادفنا بها ابن قارن>>.

12 -نيسابور:عاصمة خراسان ،يقول:<<وسرنا مجدين حتى قدمنا نيسابور وقد قتل ليلى بن نعمان >>

13 - سرخس:على ضفة نهر المشهد احد روافد نهر هراة،يقول:<<ثم رحلنا إلى سرخس >>

---

[1]-ابن فصلان الرسالة (مصدر سابق) ص 45

14 - مرو :عاصمة خراسان وبلاد ما وراء النهر في العصر الأموي ،يقول: <<ثم منها إلى مرو>>[1]

15- قشمهان :لعلها كشمهين من بلاد خراسان،يقول: << ثم منها إلى قشمهان وهي طرف مغارة آمل >>

16 - آمل:حيث معبر الطريق إلى بخارى،يقول: << ثم قطعنا المغارة إلى آمل>>

17-آفرير :على مقربة من نهر جيجون،يقول : << وصرنا إلى آفرير رباط طاهر بن علي >>

18 -بيكند :بلدة بين بخارى وججون، يقول: << ثم رحلنا إلى بيكند >>

19 - بخارى:بلدة تقع إلى الغرب من سمرقند ، يقول: <<ثم دخلنا بخارى>>

20 - خوارزم :مدينة قريبة من بخارى ،تبعد عنها حوالي 44 كيلومتر ، يقول: <<فتكارينا سفينة إلى خوارزم>>

21 -الجرجانية:مدينة عظيمة ،وبردها شديد ،كان يسكنها من يعرفون اليوم بالتركمان، يقول ابن فضلان : << وأقمنا بالجرجانية أياما وجمد جيجون من أوله إلى آخره >>[2]

22 - بلاد الصقالبة :"مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال ،شديدة البرد ،لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفا ولا شتاءا ، وقل ما يرى أهلها أرضا ناشفة "[3]

---

[1]- ابن فصلان الرسالة (مصدر سابق) ص 49

[1]-ياقوت الحموي –معجم البلدان –ج1-دار صادر ،بيروت –دت –ص485

- ابن فضلان -الرسالة (مصدر سابق)ص75

2- زمن الرحلة :

ا نطلق ابن فضلان يوم الخميس الحادي عشر من صفر عام 309 ه \الواحد والعشرون يونيو 921 م ،أي مطلع القرن 4 ه \10 م برحلة شاقة بتكليف من الخليفة المقتدر العباسي الذي طلب الصقالبة العون منه ،استغرقت الرحلة احد عشر شهرا في الذهاب وكانت مليئة بالمغامرات والمشاق والمصاعب السياسية والانفتاحيات على الآخر المختلف ثقافيا .

تكون الوفد من أربعة رجال أساسيين وبضعة مرافقين من فقهاء ومعلمين والغلمان، "وصلت البعثة إلى البلغار في الثامن عشر من محرم سنة 310 ه/12 مايو 922 م"[1]

التقى ابن فضلان في سبتمبر 921 بوزير السامانيين والعالم الجغرافي الشهير الجيهاني .

استغرقت هذه الرحلة حوالي ثلاث سنوات 921 -924 م ،حيث زار الوفد بلاد الترك والروس والصقالبة والخزر ،عندما عاد الوفد إلى بغداد ،قام ابن فضلان بتدوين وقائع رحلته في تقرير أو كتاب رسمي اشتهر باسم رسالة ابن فضلان .

[1] - كراتشكوفسكي-تاريخ الأدب الجغرافي العربي (مرجع سابق)ص187

3- الأشخاص في الرحلة :

وهم الأفراد والشخصيات التي ورد ذكرها في الرحلة .

*"ألمس بن يلطوار :وهو ملك الصقالبة ، يعرف كذلك بالحسن بن بلطوار او ألمش بن شلكي صهر الأتراك ،وورد في كتاب ياقوت باسم ألمس بن شلكي يلطوار ،ويرى بعض المستشرقين أن يلطوار ربما يكون فلاديمير اي ملك الفولاذ كما يرى بعضهم انه ألب إيلطوار .

*أمير المؤمنين المقتدر:هو أبو الفضل جعفر بن الخليفة المعتضد العباسي ،تولى الخلافة بعد أخيه المكتفي حوالي سنة 874، وكان لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره،كان سمحا كثير الإنفاق ، وأكثر من الخلع والصلات وكان في داره إحدى عشر ألف خادم ،وكانت خزينته في بادئ الأمر مليئة بالجواهر النفيسة ،على أن دولته عانت من الفوضى لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ،وهو مشغول بلذاته ، فخربت الدنيا في أيامه ،وخلت بيوت المال ،قتل عام 899 م، مكثت جثته مرمية على قارعة الطريق .

*نذير الحرمي :هو سفير المقتدر إلى بلاد الصقالبة ،وكان ممن توسط بين ملك الصقالبة والخليفة من أجل إرسال البعثة برئاسة ابن فضلان."[1]

* ابن الفرات :"أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات ،كان وزيرا للخليفة العباسي المقتدر بالله".[2]

---

[1]- ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق)ص 39 -

2-حامد حفني داوود –تاريخ الأدب العربي –ديوان المطبوعات الجامعية –ط2 -1993 ص106

*عبد الله بن باشتر الخزري :سفير ملك الصقالبة للخليفة المقتدر

*رسول السلطان :حاكم خراسان وما يتبعها من مناطق شمال الدولة الإسلامية يومذاك .

*سوسن الرسي :حاجب المكتفي، سمي نسبة لنهر الرس، مولى نذير الحرمي

*تكين الرسي وبارس الصقالبي :كانا مرشدين للبعثة ،وبارس هو حاجب غلام إسماعيل بن احمد صاحب خراسان .

1- العجم والأتراك:

*احمد بن علي أخا صعلوك :وهو احمد بن علي ،صعلوك قلد أعمال المعاون اي قائد الأمن أو الشرطة بأصبهان وقم .

*ابن قارن :هو الفضل بن قارن الطبري أخي مازيار ابن قارن .

*حمويه كوسا صاحب جيش خراسان:هوحمويه بن علي حكم سمرقند سنة301ه، وكان صاحب جيش نصر بن أحمد بن إسماعيل .

*الداعي: الحسن بن القاسم الحسني الداعي توفي سنة 928 م آخر رجال الدولة العلوية في طبرستان ،ولاه الناصر العلوي قيادة جيشه ،وزوجه ابنته ،ولما قتل الناصر 304 ه قام الداعي بالأمر بعده .[1]

*الطاهر بن علي:"...."

---

[1]-ابن فضلان –الرسالة (مصدر سابق)ص 45

* ليلى بن نعمان :هو ليلى بن نعمان الديلمي توفي سنة 309 ه وهو احد أبناء الأطروس العلوي وكانت إليه ولاية جرجان ،استعمله عليها الحسن بن القاسم الداعي سنة 308 ه .

*الجيهاني :"أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني ،وزير صاحب خراسان ،له كتاب ضائع اليوم بعنوان المسالك والممالك ".[1]

*نصر بن احمد :" نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني ،الملقب بالسعيد (293 -331 ه) صاحب خراسان وما وراء النهر ،حكم بين (301 -331 ه) ولي الإمارة وكان صغيرا ، فكفله أصحاب أبيه ،لما كبر امتد سلطانه واتسعت دائرة ملكه ،فكان له خراسان وجرجان والري ونيسابور ،مات بالسل .

* الفضل بن موسى النصراني :وكيل ابن الفرات.

*أحمد بن موسى الخوارزمي : "...."

* المعاون: رئيس الشرطة

*عمال المعاون : أعوانه الذين تحت إمرته .

* محمد بن عراق خوارزم شاه: أمير خوارزم

يبغو :ملك الترك

كوذركين :خليفة الملك" .[2]

---

[1]-قدري حافظ طوقان –العلوم عند العرب –دار إقراء –دط - دت –ص73

2-ابن فضلان –الرسالة (مصدر سابق)ص48

*أترك بن القطغان :صاحب الجيش

* امرأة اترك بن القطغان :

*طوخان وينال وابن أخيهما وايلغز :يلون صاحب الجيش في الرتبة .

قواد الملك وأهل بلده :

حامد بن العباس :كان يتولى أعمال السواد ،اشتغل بالتجارة ثم وزر للمقتدر ،لما ولي الوزارة كان في الثمانين من عمره ،كان كريما مفضلا،متجملا .

* الملوك الأربعة الذين تحت الملك في الرتبة واخوته وأولاده.

* الملك اسكل

* ابن وابنة الملك .

2- الروسية

*الروسية : "امة من الأمم بلادهم للصقالبة ،يقال لهم رس "

* الرجل الجليل: وهو رجل ميت

* جاريته :

* صاحب القبة :صاحب المكان الذي وضع فيه الرجل الميت

* ملك الموت: المرأة التي تقتل الجارية

* الجاريتان اللتان تخدمان الجارية التي تقتل لتبقى مع مولاها الميت: وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت.

*ست رجال:تجلى دورهم في مساعدة ملك الموت في قتل الجارية

* ملك الروس وأصحابه وجواريه .

* قلواس :احد أدلاء ابن فضلان ،وهو من أهل الجرجانية

* ويرغ: "..[1]

3- الخزر:

*ملك الخزر :اسمه خاقان ،يدعى خاقان الكبير

*خليفة الملك :خاقان به ،دوره قيادة الجيش

* كندر خاقان :يخلف خليفة الملك

*جاو شيغر :رتبة عسكرية وأمنية او مرتبة إدارية

*زوجات الملك

*جواريه

*خدم الملك

*خز :غلام الملك .[2]

---

[1]"...." هؤلاء لم أهتدي إليهم، ولم يهتدي إليهم صاحب الدراسة.

2- ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق)ص117

لقد استحقت رحلة ابنالتي قام بها سنة 921 ه عناية استثنائية من طرف الباحثين والمحققين ،لأنها من أثار الرحلات العربية التي وصلت إلينا .

ومقارنة برحلة أبي دلف 942 ه،ورحلة المقدسي 995 ه ،فان رحلة ابن فضلان تظل مشغولة بهم توثيقي صرف أكثر من اهتمامها بالشأن الجغرافي ،إنها وصف انتروبولوجي يتمحور حول موضوع واحد محدد لا يحيد عنه رغم قصر النسخة الواصلة ألينا .

"فهذه الرحلة هي رمز لرحلات العرب في أوربا ،حتى نؤمن أن العرب قد توغلوا في كل الأقاليم من حولهم ،فعرفوا جغرافيتها وتاريخها وأحوال سكانها معرفة دقيقة"[1]

من هنا نقتبس عبارة للفيلسوف الانجليزي فرانسيس يقول فيها :"<<ان السفر تعليم للصغار وخبرة للكبير >>

كما يقول شيخ جامع الأزهر في عصر محمد علي باشا في هذا الصدد <<إن السفر مرآة للأعاجيب وقسطاس التجارب >>"[2]

فالرحالة عند قيامه برحلة ،يستفيد مما يراه ويسمعه من أعاجيب تذهل الأبصار ، وينقل إلى قومه كل المعارف التي استفاد منها في رحلته ،الرحلة احد المصادر النادرة للتعريف بالحالة في تلك المنطقة المنعزلة عن العالم نسبيا يومها.

من خلال رحلة ابن فضلان التي قيل وكتب عنها الكثير نود أن نشير إلى أمرين:

---

[1]- شوقي ضيف – الرحلات (مرجع سابق)ص50

2-حسين محمد فهيم –أدب الرحلات –المجلس الوطني للثقافة والفنون ،الكويت – دط -1978 – ص 183

الفصل الأول

1-علاقة العرب بالآخر :

لا تبدوا علاقة العالم العربي ،أو اقلها ثقافة الناطقين باللغة العربية من عرب وغير العرب ممن كانوا يستخدمون العربية في حضارة كانت هذه اللغة بها شيئا ساميا وضروريا ،بمثل استلابها هذا اليوم مع الآخر ،وهو ما تبرهنه رحلة ابن فضلان ،لم يكن الاختلاف البديهي بين الأنا والأخر ليتصاعد إلى المستوى الموصوف في كتابات البعض من الباحثين العرب المعاصرين ممن يصفون العلاقة مع الحضارات الأخرى بمنطق الحذر والريبة ،بل إن ثنائية نهائية ومطلقة بين (دار الإسلام)و(دار الكفر)لم تكن تشتغل في الواقع العملي كما تشتغل على الصعيد النظري البحت ،مثلها مثل الكثير من المفهومات السائدة الأخرى .

هذا ما تبرهنه الهجرة الواسعة النطاق من طرف الجغرافيين وعلماء فلك هنود وخزافين صينيين وغيرهم ، قادمين كلهم من دار الكفر (الهند والصين) للإقامة في دار الإسلام ،بغداد العباسية .

من هذا المنطلق يبدوا ابن فضلان وصحبه ،وهو في موقف الواثق إلى درجة كان يأمر بها وينهى ملك الصقالبة نفسه <<وبدأت فقرات صدر الكتاب فلما بلغت منه،

سلام عليك فاني احمد إليك الله الذي لا اله إلا هو ،قلت :رد على أمير المؤمنين السلام ،فرد وردوا جميعا بأسرهم >> [1]

---

[1] ثريا شرف – الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي –تر عبد العزيز طريح شرف –مؤسسة الثقافة الجامعية ،الاسكندرية -2003 –ص73

هذه الثقة قادمة من ترسخ وقوة الحضارة الإسلامية في العالم القديم، ومثلما لا يشعر الأمريكي اليوم بالهيبة من حضور الآخر ،فلم يكن العربي والمسلم ليعانيان من هذا الشعور .

2- هجرة الأيدي العاملة اتجاه مراكز الثروة:

تغدوا العواصم الغنية الكبرى ،في لحظات الازدهار الحضاري ،محطات للقادمين من مختلف أصقاع العالم يبحثون عن لقمة العيش .

إن تجمع الثروات في بقعة ما من بين ما يعني أن تلك العواصم قد صارت موطنا لتجمع كميات كبيرة من الذهب، وهو ما نراه في عواصم الأرض اليوم: فرنسا، ألمانيا، الولايات المتحدة، سويسرا... ،التي تستقطب المزيج من المهاجرين من مختلف التخصصات ،حيث أن القاعدة العامة في التاريخ الاقتصادي هي أن هجرة الأيدي العاملة تتابع مراكز انتقال الذهب ،رمز الثروة هذا هو الحال في بغداد في العصور العباسية المزدهرة التي كان وضعها يشابه تماما العواصم الثرية في وقتنا الحالي ،يشابه تماما حتى بالتفصيلات الأقل دقة ،وجود تجمعات وأسواق لجاليات أجنبية مثل الهنود والصين والعرب في فرنسا ونيويورك اليوم كان له مثيل في سوق الخضر لباعة وصناع الخزف والغضار الصيني في بغداد العباسية ’وفي الأعداد المتزايدة من الهنود المشتغلين في حقول التنجيم والرياضيات ،والبيزنطيين المشتغلين

في حقول الصناعات الدقيقة ،ناهيك عن المزخرفين والخطاطين مثل ياقوت المستعصمي الرومي والبيزنطي ،كما كانت حاجة متزايدة للمترجمين ،ليس فحسب

ممن ينقلون كتب الأمم الاخري إلى العربية ،ولكن ممن يقومون بدور السفراء الدبلوماسيين بين الإمبراطورية الإسلامية وما يجاورها من الدول .[1]

هكذا كانت تتقاطر على العاصمة بغداد مختلف اللغات والتقاليد والشعوب، وتقيم فيها بحثا عن لقمة العيش.

"وهذا يدل أن سمعة بغداد كانت في الخارج جيدة ،بل عظيمة ،يتهافت الملوك والأمراء عليها ليعقدوا معها أجمل الصلات وأوثق المحالفات حتى أن الصقالبة وهم من سكان الشمال في أوربا على أطراف نهر الفولغا(نهر اتل عند العرب) وعاصمتهم على مقربة من قازان اليوم والتي لا يزال بعض أطلالها قائما وعلى نحو ستة كيلومترات من شاطئ الفولغا الأيسر ،وحيث الدرجة خمس وخمسون من العرض الشمالي وست وستون من الطول الشرقي خطبوا ودها وتقربوا إليها"[2]

رحلة ابن فضلان هي أقدم نص لرحلة قام بها عربي في الأصقاع البعيدة في العالم ،فتلغ بلاد الترك والروس والصقالبة "السلاف"سنة921 م.

---

[1]-ابن فضلان –الرسالة (مصدر سابق)ص34

2-عبد الرحمن حميدة-إعلام الجغرافيين العرب(مرجع سابق)-ص202

هذه الرحلة تزود تاريخ العالم بشذرات نادرة من أنماط معيشة شعوب قلما سجلت، فتسد ثغرة تاريخية في هذا المجال،ويعتبر ابن فضلان رائدا في الإشارة إلى تاريخ الشعوب السلافية ،والروس منهم على الخصوص ،تكشف هذه الرحلة عن هوة فاجحة بين المستوى الحضاري الذي خرج منه هذا السفير ،وبين الأقوام والشعوب التي حل في موطنها،كما نشير إلى أن هذه الرحلة شغلت حيزا ملحوظا في كتب التراث العربي الجغرافي،كما أن كلا من العالمان الجغرافيان القزويني وياقوت الحموي قد استشهدا واستخدما في مراجعهما بعضا من نصوص رسالة ابن فضلان،وقد اثبت ياقوت قرابة عشرين صفحة من الرسالة فنقل ثلثيها وترك ثلثا واحدا مجهولا.

مظهر ابن فضلان في رواية أكلة الأموات لكريكتون:

يظهر ابن فضلان في الرواية واحدا من الأشخاص الرئيسيين ،لكنه بطل يحمل جميع السمات السلبية التي فتئ بعض الفكر الغربي يلصقها بالعرب ،ابن فضلان فيها رمز للعربي الجبان إلى ابعد الحدود ،لا يمتلك روح النكتة ،مزجور على الدوام بسبب تدخلاته الفظة بما لا يعنيه ،مرتعد الفرائص ،ولا يريد أن يكون بطلا ،متزمت في دينه بادئ الأمر ثم متناقض مع معتقداته الدينية ،غبي،لا يعرف السباحة ،مندهش من خضرة الغابات التي لا تعرفها صحراءه ،بالمقابل يبدو رجال الشمال أشداء ،لا يخافون شيئا جسورين وشجعان ،إلى درجة يبدوا معها ابن فضلان بينهم فأرا تافها مختبئا في جحره ،وفي أحسن الحالات ديكورا اكزوتيكيا رائعا .

فهي سخرية متناهية، حط من شأن العرب، وتفكه فظ من نزعتهم الدينية التوحيدية.

وهذا يبرز في المقاطع التالية :

<<قلوبكم (أيها العرب) عبارة عن كيس يطفح بالأسباب >>وهي سخرية من النزعة العقلانية عند العرب.

<<إذا لم يكن مسحورا فلربما أصبح عربيا إذ انه يغسل ملابسه الداخلية وجسمه كل يوم >>وهي سخرية من نزعة النظافة المستمرة والطهارة عند المسلمين .

<< لا أريد أن اسمع أسئلة من أحمق>> أي من عربي.[1]

---

[1] - ابن فضلان- الرسالة (مصدر سابق)ص25

كل هذه التناقضات والإشارات تؤكد أن العمل مصنوع صنعا كرواية وهو ابعد أن يكون تتمة تاريخية حقيقية لرحلة ابن فضلان وهي اقرب أن تكون رواية هوليوودية ،وهو إجحاف بعيد ،وضرب من عدم الدقة العلمية .

نص كريكتون يعتبر مجرد تخيلات جميلة سطرها قلم روائي بارع، في هذه الرواية يختلط البحث العلمي والتاريخي بخيال الروائي ،وبهذا نتأكد أن هذه المخطوطة ليست أصلية إنما هي عمل متخيل لا يمت بصلة إلى البحث العلمي الرصين ،رغم انه يظهر لنا في الوهلة الأولى عملا دقيقا علميا موثقا .

" فهي رواية خيال تاريخية على نمط روايات أمين معلوف ،لكن خلافا لمعلوف الذي يهتم كثيرا بالتفاصيل التاريخية ويصوغ وفق مخطط روائي متخيل، إن كريكتون يجمع القليل جدا من التفاصيل المستلهمة عرضا عن بطله ابن فضلان ، ويصوغ الباقي كله وفق مخطط روائي مختلف تماما .

على انه استخدم حيلة روائية مدهشة وهي أن يكتب مقدمة تعريفية شبه جادة عن ابن فضلان ، ويعدد فيها مصادره بطريقة جد غامضة توحي انه في الصميم عمل تاريخي ،كما يضع في ثناياه الكثير من الهوامش التي تشرح طقسا أو تقليدا إسلاميا ، مما يمنح القراءة بعدا جديدا يسعى عمدا إلى طمس الحدود بين المتخيل والواقعي ،فهو يوحي للقارئ بأنه صلب واقعة تاريخية لم يفعل هو إلا نقلها إليهم،وهي حيلة روائي من الطراز الرفيع ،لكن هذه الحيلة لم تفت نقاده الأمريكيين الأكثر جدية الذين وصفوا العمل بأنه كتابة متخيلة لقصة مأخوذة من سفير عربي "[1]

---

[1] - ابن فضلان–الرسالة (مصدر سابق)ص 23

الفصل الثاني:

لغة الرحلة الفضلانية

1- مسارات السرد.

2- ممرات الوصف.

3- وقفات الحوار.

تطالعنا الرحلة الفضلانية بمستويات لغوية متعددة ،تداخل فيها القص مع السرد إلى الحوار "فالقيمة الحقيقية الأدبية لكتب الرحلات تتجلى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب ،ونرقى بها إلى مستوى الخيال الفني، وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات ،من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار ،إلى الوصف ،فان ابرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق"[1] بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى للمتلقي أو القارئ وحتى السامع. وانطلاقا من هذا أصبحت مقاربة اللغة بتمثلاتها جميعا موضوعا شائقا للتحليل والتفسير ،وان كانت النظرة إلى اللغة ابتداء بما هي نظام من العلامات الجزئية ،وان النظرة إليها أصبحت في سياق وجودي يصنفها كشكل نظم من العلامات يغدو معها الكون كله لوحة ،وتظل اللغة اظهر النظم الرمزية المتمايزة المختلفة في ألوان البشر وأجناسهم ومنجزاتهم ،في معمارهم وأحوالهم،في طقوسهم وتراتيب حياتهم ،في حرفهم وأزيائهم .

ولان معظم الدارسين لم يلتفتوا الى البناء القصصي الفني والسردي لادب الرحلة، فقد جاءت الدراسة هنا لتحاول الوقوف على حقيقة هذا الجانب ،بابراز البنية العامة للخطاب الرحلي .

---

[1] -نوال عبد الرحمن الشوابكة –ادب الرحلات الاندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع هجري (مرجع سابق)-ص296

1-مسارات السرد:

يحتل السرد مكانة هامة وبارزة في أدب الرحلات "فهو يمثل العصب الرئيسي للخطاب الرحلي عموما ،فلا تنفك الكتابة الرحلية عن السرد ،ولا يمكن أن نستغني عنه مادامت تنقل إلى المتلقي أحداثا وأفعالا قامت بها الذات الكاتبة، وتكون هذه الإحداث والأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثم العودة إليه، ولعل جسد الرحلة يتمثل في السرد الذي يعطي للرحلة شرعيتها الأدبية "[1] بعدما كانت رحلة فعلية يشترك فيها جميع البشر باعتبار مستلزمات حياتهم وضرورياتها لا تتم إلا عبر التنقل والسفر،ومن السرد يقوم هذا النشاط ويعطيه صفة الخطاب .

وهذا المسار الذي تعرفه الرحلة هو حيز زمني من خلاله تتفرع بنيات اخرى خادمة للبنية العامة للخطاب السردي باعتبار ان الرحلة هي ذلك السفر الذي يقوم على التنقل ، فكل حركة يقوم بها صاحب الرحلة وتنقله من مكان الى آخر لها عداد يرصدها ،فالسرد هو إعادة لمسيرة الرحلة خطابيا ،فهو يبدا مع بدإ الرحلة ويستمر حتى نهايتها ،وهذه المسيرة السردية تتكون من مقاطع سردية دائمة الحضور في كل الرحلات،أما البنيات الخادمة هي محطات تتخلل المسيرة السردية في الرحلات، حيث ان السرد يتوقف في بعض الأحيان ليفسح المجال لهذه المكونات والظهور، ولا يتوقف الراوي او صاحب الرحلة عن السرد ،الا ليقدم وصفا او معلومات ومعارف عن الأشخاص الذين التقى بهم او عن البلاد التي زارها والمكان المتواجد به ،

أو ليكتب شعرا أو خواطر، وبعد الانتهاء منها يعود السرد إلى مجراه، ويعود إلى سرد الأحداث كما كن في السابق.

1-عيسى بخيتي –جمالية المشهد ففي أدب الرحلة الجزائرية الحديثة –الرحلة خارج الوطن نموذجا –رسالة ماجيستير ،مخطوط ،كلية الآداب واللغات ،عين تموشنت ،2010 ،ص77

فالخطاب الرحلي هو سرد واقعي ،يعتمد على نظام السرد الذاتي في تشكيل نمطه "يتتبع الحكي من خلال عيني الراوي أو طرف السامع متوفرين على تفسير لكل خبر ، متى وكيف عرفه الراوي أو المستمع نفسه "[1]

وبهذا تتحول التجربة الجسدية الشخصية إلى معالجة خطابية تتشكل وفق معطيات الكاتب معرفيا وإيديولوجيا ،وفق خلفيات متباينة ،تختلف من كاتب لآخر ومن راوي لأخر لان"العملية السردية هي تحويل لأحداث ووقائع من تجربة معيشة إلى سرد مكتوب من تحرفات وإضافات وإهمال وتقريرية"[2] لذلك نجد أن لسلطان السرد بصمته الخاصة في الرحلة الفضلانية ،باعتبار انه اعتمد كثيرا على نقل أخبار البلدان والوقائع وتحليلها في رسالته كما لجا إلى معالجة الأوضاع في البلدان التي زارها وتقويمها ،لأنه بكل بساطة هي رحلة رسمية قامت بها بعثة استكشافية ،كانت لها أهداف سياسية ،إصلاحية ،فنصيبها موكول للتقرير .

وهذا بهدف سرد المعارف ونقل التجارب إلى المتلقي ، حيث أدت الرحلة وظيفة معرفية شعبية وهذا وفق عدة مستويات منها العلمي ،الثقافي،الفولكلوري والغرائبي .

---

[1] - حميد لحميداني -بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي –المركز الثقافي العربي ،بيروت -1993 –ص46

[2] - شعيب حليفي –الرحلة في الأدب العربي –رؤية للنشر والتوزيع ،القاهرة –ط1 -2006 –ص 268

فقد جاء نص ابن فضلان نصا قصصيا سرديا يروي الأحداث ويصور الشخصيات، حيث نوع فيه الرحالة بين السرد القصصي المشوق ،والوصف الدقيق والطريف للواقع ،فهو سرد للتجربة الذاتية الغنية بالصور والمفاجآت والمغامرات .

ومنه قول ابن فضلان "ثم أوغلنا في بلد الترك لا نلوي على شئ ولا يلقانا احد في البرية قفر بغير جبل ،فسرنا فيها عشرة أيام ،ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف، ونسينا كل ما مر بنا وأشرفنا على تلف الأنفس،ولقد أصابنا في بعض الأيام برد شديد وكان تكين يسايرني والى جانبه رجل من الأتراك يكلمه بالتركية ،فضحك تكين وقال :إن هذا التركي يقول لك أي شئ يريد ربنا منا هودا يقتلنا بالبرد ولو علمنا ما يريد لرفعناه إليه؟ فقلت له:قل له يريد منكم أن تقولوا لا اله إلا الله، فضحك وقال:لو علمنا لفعلنا"[1]

ولعل طبيعته تميل إلى للسرد وللحكايات الطريفة والغرائبية وهذا ما دفع الكاتب لرواية تلك القصص التي عاشها ،فجاء سرده لهذه القصص بعفوية وحيوية، قربت الرحلة من عالم القصة .

---

[1] - ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق)-ص61

فابن فضلان لم يهتم بالمحسنات البديعية والزخرفة اللفظية ،فجاء أسلوبه اقرب إلى الاهتمام بالحدث أكثر من الزخرفة ،فسرد الأحداث بألفاظ بسيطة ،مع احتفاظها بجمالياتها ورونقها وخلوها من آثار الصنعة البديعية وقيامها على السهولة والوضوح

مع توفير الجزالة والرصانة ،فهو أسلوب واضح شفاف ليس فيه تعقيد ،وهذا لا يعني انه لم يهتم بالجمال الشكلي ،لكنه كان يسعى إلى الدقة في التصوير والوصف ، حيث أن الرحالة وظف لغته بدلالاتها المعجمية الدقيقة ،فكل لفظ في الرحلة يستعمل لأداء ميوله اللغوي الذي وضع فيه ،فغاية الرحالة في كتابه أن "يوفق بين اللفظ الدال والمعنى المدلول "[1]

على أن الرحالة يلجا في بعض الأحيان إلى استعمال بعض الألفاظ الغريبة أو الكلمات الغير مألوفة جعلت المحقق يشير اليها في الهامش مثل : البذرقة ،المرصد، الشبه ،المحيص ،ارد بره[2] وغيرها من المفردات ،كما يخلوا النص من استعمال المحسنات البديعية .

---

[1] سعيد يقطين –الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي –المركز الثقافي العربي –ط1 -1997 –ص 133

2 -البذرقة :الحراسة والحماية –المرصد :مركز الجنود –الشبه :النحاس الأصفر –المحيص:المهرب –أرد بره : أراد صلته .

كما نلاحظ من خلال طريقة الكتابة واللغة التي يترسل بها كاتب الرحلة، أنه يضيف إليها قيمة أدبية ،خاصة عندما يحتفل بالأساطير والخرافات ،وبعض المحسنات البلاغية وجمال اللفظ ،وحسن التعبير،وارتقاء الوصف وبلوغه حدا كبيرا من الدقة والتزامه باللغة الجادة القارة ،والابتعاد عن الموسيقى الداخلية والكلمات ذات الدلالة العاطفية الانفعالية والابتعاد عن الهوى والميل والغرض الذاتي ،إذ انه لم ينقل

الأخبار دون غربلة أو دون التأكد من صحتها ،وبهذا فقد عبرت عن ذوق العصر وحضارته ،فهي ليست وسيلة اكتشاف فحسب بل هي جزء أصيل من حركة الحيلة على الأرض .

بتأطيرنا للسرد كشكل فني يتوجب علينا الإشارة إلى الإثارة التي ترمز إلى الانفتاح، والتي تكون بمثابة الأرضية الأولى التي تموقع المتلقي وهو يتابع الأحداث ،إنها الموجه الأساسي لكل التحولات .

ومن الواضح أن ابن فضلان نفسه كان شاهدا ذكيا ،اهتم بالتفاصيل اليومية، وبنفس الوقت بحياة ومعتقدات الشعب الذي التقى به ،لقد أذعره كثيرا ما شاهده واعتبره فظا ووحشيا وفاحشا ، لكنه لم يبدد وقته بتوجيه الاهانات له،وإذ ما أبدي امتعاضه مرة،عاد مباشرة إلى ملاحظاته النيرة ،وكان يروي ما يراه بأقل قدر من الاستعلاء أو الشعور بالتفوق .

لم يحدث للرحالة ان تحرز ،بل كانت كل كلماته ترن بالحقيقة ،وكلما أخبر عن إشاعة كان حريصا على النوح بأنها كذلك ،هذه السجية من الصدق المطلق هي التي تجعل قصته رهيبة حقا .

"هذا ما جعل السرد ينتصب كعنوان شامل لتجليات اللغة بما هي أم نظم العلامات جميعا وتجاوز الأدبي"[1] بمفهومه الجمالى التقليدي الى فضاء الموروث المدون، كله جميعا ،وأصبح التاريخ والأسطورة ،والحقيقي والمتخيل وكل نص خلفته التجربة الحضارية ،وأصبح التأويل قراءة خاصة تتجاوز النقد بمعاييره المتعارفة إلى التنقيب في البني المعرفية والصيرورة الثقافية .

كما تتضمن الرسالة مادة وصفية تحليلية جيدة أصبحت مرجعا لكل من جاء بعد ابن فضلان ،ورغب أن يحيط علما بهذه البلاد مثل المسعودي وياقوت الحموي ، والاصطخري ،وتزداد قيمة هذه الرسالة ليس فقط بفضل معلوماتها الجغرافية ووصفها الدقيق لملامح الحياة في هذا العالم الجديد ،ولكن بفضل السرد التحليلي للسمات الاثنوجرافية ،والانتروبولوجية لهذه المناطق ،الأمر الذي كان مجهولا تقريبا لمعظم الشعوب في العالم الإسلامي .

---

[1] - د. هيثم سرحان –الأنظمة السميائية دراسة في السرد العربي القديم –دار الكتاب الجديد المتحدة ،بيروت –ط1 –2008 –ص 11

وسوف يدرك القارئ قيمة هذه الرسالة الأدبية والفنية "إذ تتدفق فيها العبارات، وتنثال الجمل في سهولة ويسر دون ثرثرة أو حذلقة أو تكلف"[1]،استطاع ابن فضلان أن يخلف لنا صياغة جديدة ومحكمة لكل ما حصل عليه ولمسه من معلومات جغرافية وإنسانية وان يبلور هذا الكم في نص مترابط ،أشبه بقصة متماسكة مهما تعددت فصولها وحوادثها .

من خلال ما تقدم ذكره نرى أن أسلوب ابن فضلان في رحلته هو أسلوب ممتع، شيق ،تميز فيه ابن فضلان بدقة ملاحظاته ،فقد سجل أكثر ما يرى السائح ،وينقل إليه ما يدور خلال السياحة من حوار ودسائس ،ولغتها الحية المصورة التي لا تخلوا بين الآونة والأخرى من بعض الدعابة التي ربما لم تكن مقصودة .

فالرحالة انتهج طريقة التشويق الغنية بالصور والمفاجآت والمغامرات ،فقد سرد المعارف ونقل التجارب ،مما أعطى للرحلة وظيفة معرفية شعبية .

ومن اجل الحفاظ على القيمة القصصية مزج الرحالة بين القص المعتمد على السرد والحوار والوصف، هذا من اجل تأكيد الصبغة الأدبية للرحلة، واكتسابها وظيفة القصصية، وإكسابها سمات الشكل الأدبي القصصي من اجل نقل المهم والجديد والممتع والنافع.

---

[1] - د. سيد حامد النساج –مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا –مكتبة غريب ،القاهرة –دت –ص 08

ولهذا لم يعد النص نوع فني فقط بل أصبح مبثوثا مرسلا بالصوت ،والضوء ،والحركة من اجل ان يكون له سطوة على القارئ والسامع ،ويكون كامن في منطق تكونه ،ويكون السرد محرك لدينامية هذا المكون .

2- ممرات الوصف:

الوصف في المصطلح الأدبي هو "تصوير العام الخارجي او العالم الداخلي ،من خلال الألفاظ ،والعبارات ،وتقوم فيه التشبيهات والاستعارات مقام الألوان لدى الرسام والنغم لدى الموسيقى" [1]

الوصف من الأساليب التعبيرية الرئيسة التي يعتمد عليها عنصر القص، ويعد الوصف من الدعائم الأساس التي يترسل بها المؤلف لنقل مشاهداته والتعريف بالبلدان المجتازة أثناء سفره، وهو الذي يمتد من المكان إلى الشخوص لتحديد صفاتهم الخلقية والخلقية

الوصف في الأدب الرحلاتي:

ينتشر الوصف في مساحات كبيرة من نص الخطاب الرحلي او قد يتقاسم مع السرد الحصة الكلية لهذا المتن باعتبار ان السرد والوصف نمطان خطابيان يتناوبان على طول الخطاب الرحلي ،إذ أن الوصف في الرحلة ليس مفارقا للسرد،بل خادما له، فالراوي يسرد حيث يتحدث عن المتحرك ويصف حيث يتحدث عن الساكن ،وبعبارة أخرى،يتسم السرد بالحديث عن الفعل في الزمان ، ويتم الوصف بالحديث

[1] - د. جبور عبد النور –المعجم الادبي –دار العلم للملايين ،بيروت –ط2 -1984 – ص 293

عن المكان أو الأشياء أو الأشخاص ،وذلك بالرغم من الانطباع العام الذي يوحي به النص الرحلي كنص وصفي"فالسارد في الرحلة إذن يصف ليسرد ويسرد ليصف "[1]

للوصف أبعاد جمالية ،بما يقدم من وصف لملامح الشخصيات أو اضاءات عن المواقع والأحداث ،حيث حاول الرحالة رصد كل ما شاهده وسمعه ،وسجل كل ما تقع عليه عينه من مشاهد شتى تتعلق بالمسالك والممالك والسكان والمخلوقات.

وقد استطاعت هذه الأوصاف أن تعبر عن انطباعات الرحالة وترسم صورة لشخصياتهم ،فهو ينقلون الأخبار والأحداث ،ويصفها حتى تصل إلى عالم المحسوسات المدركة بالمشاهدة والسماع .

وبهذا فالرحالة ابن فضلان يضفي على الرحلة المشاعر والعواطف، ويجعلها تنبض بالحياة والحركة، ولهذا قدمت الرحلة المتعة والتشويق والإثارة للقارئ، وكشف عن مكامن الجمال الطبيعي لمختلف المخلوقات التي شاهدها، ومختلف المواقع والمناطق والبقاع التي زارها.

ويتضح من خلال وصف الرحالة ولغته المستخدمة قدرته على الوصف الذي اتسم بالصدق غالبا والدقة والشمول ،فالرحلة "أمينة مع الحياة الطبيعية والواقية المعاشة بكثافة"[2]

---

[1] -د.عبد الرحيم مودن –الرحلة في الادب المغربي النص النوع السياق –افريقيا للشرق ،المغرب -2006 –ص 112

2- د. صلاح فضل –بلاغة الخطاب وعلم النص –المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ،الكويت- 1992 –ص253

1| وصف المدن وخصائص البيئة الطبيعية :

عرف الرحالة بالأماكن والمواقع ،فتعرض إلى وصف المدن وذكر مواقع كثيرة عن مواقع المياه والأودية ويظهر هذا في قوله :"ورأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام "وقوله عن إحدى مدن الخزر :"ولملك الخزر مدينة عظيمة على نهر إتل وهي جانبان، في احد الجانبين المسلمون وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه"[1]

كما لجا إلى تقديم وصف شديد للبيئة الطبيعية قصد تحديد الرؤية التي يعبر عنها ويظهر هذا في "فأقمنا بالجرجانية أياما وجمد من أوله إلى آخره ،كان سمك الجمد سبعة عشر شبرا ،فرأينا بلدا ما ظننا إلا بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة ،فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج"[2]

فالرجل قد صور الرحلة والعادات والتقاليد والحياة والأخلاق في ذلك العصر، في مختلف المناطق التي مر بها أو أقام فيها ،فكان دقيق الملاحظة ،حيث سجل أكثر ما يرى السائح .ويتابع ابن فضلان الدخول بنا إلى عوالم رحلته قائلا : "رأيت قبل مغيب الشمس بساعة أفق السماء وقد احمر احمرارا شديدا وسمعت في الجو أصواتا عالية وهمهمة ،فرفعت راسي فإذا غيم احمر مثل النار قريب مني " وقوله" والصواعق في بلادهم كثيرة جدا "[3]

---

[1] ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق)-ص58

[2] المصدر نفسه ص50

لمصدر نفسه ص385-

2|وصف الأخلاق والعادات والمعتقدات :

اهتم الرحالة بوصف عالم الأقوام التي زارها ،إذ عني بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعها وما بديارها من آثار وعجائب ،وقص ما عندها من أساطير وخرافات ،كما اهتم بوصف أسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والمعتقدات للمجتمعات التي زارها خلال هذه الفترة الزمنية المحددة ، وبهذا فهو وصف دقيق وثابت ومترابط لثقافات المجتمعات الإنسانية ،كما عني بوصف خصال أهلها .

1- الآداب والأخلاق:

كانت عين الرحالة وذهنه المتقد وملاحظاته الدقيقة الواعية ترصد كل ما يدور حوله ،متوقفا عند كل ما يحمل دلالة ويقدم معرفة ،ومن هذا ذكره للآداب المتبعة في بلاد الصقالبة فيقول "أكلنا كل واحد من مائدته لا يشاركه فيها احد ولا يتناول من مائدة غيره شيئا ،فإذا فرغ من الطعام حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى منزله "[1]

هنا ابن فضلان يستشعر راحة لهذه الآداب خاصة تأكيده على أن لكل فرد مائدته لا يشاركه فيها احد ولا يتناول من مائدة غيره شيئا.

ووصفه لأخلاق الروسية :

"وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطعام "[2]

---

[1] - ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق)ص77

- ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق) ص2103

وقوله عن معاملة الروسيين للمرضى :

وقوله عن معاملة الروسيين للمرضى :

" وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئا من الخبز والماء ولا يقربوه ولا يكلموه بل ولا يتعاهدونه في كل أيام مرضه

لاسيما إن كان ضعيفا أو مملوكا ،فإذا برئ وقام رجع إليهم وان مات احرقوه ،وان كان مملوكا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير "[1]

2- العادات والمعتقدات:

من ابرز المعتقدات التي تميز بها الروس هي: اذا سقطت صاعقة في دار احدهم لم يقربوه ويتركوه حتى يتلفه الزمان ويقولون هذا موضع مغضوب عليه .

ومن أطرف ما ذكره الرحالة عن الروسية كان وصفه لعاداتهم في الاحتفال بحرق مركب تحمل جثة احد موتاهم ،فبمجرد أن أتيحت له فرصة حضور الاحتفال ذهب إليه مع مترجمه"وقد كانت الحيوية التي تميز بها وصفه رائعة

لدرجة أوحت إلى احد الفنانين بان يصورها في لوحة موجودة حاليا في متحف التاريخ بموسكوا "[2]

---

[1] - مصدر نفسه ص105

[2] -ثريا شرف –الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي (مرجع سابق)ص274

كما اهتم ابن فضلان بذكر عادات الروس الصحية والجنسية التي لم يكن لها أي نظام بل كانت فوضوية على درجة كبيرة ،ولم يهتموا بالنظافة بأي شكل من الأشكال "ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه "[1]

ذكر بعض معتقدات الصقالبة منها تبركهم بعواء الكلاب جدا ويفرحون به ويقولون "سنة خصب وبركة وسلامة "

وأشار إلى بعض الغرائب والعجائب التي حصلت معه في هذه البلاد ،من ذلك قوله "ورأيت في بلده العجائب ما لا أحصيها كثرة من ذلك ،أن أول ليلة بتناها في بلده ،رأيت قبل مغيب الشمس بساعة أفق السماء ،وقد احمر احمرارا شديدا وسمعت في الجو أصواتا عالية وهمهمة ،فرفعت راسي فإذا غيم احمر مثل النار قريب مني، فإذا تلك الهمهمة والأصوات منه ،وإذا منه أمثال الناس والدواب، وإذا في أيدي

الأشباح التي فيها قسي ورماح وسيوف، فسألنا الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم يقتتلون كل عشية، وإنهم ما عدموا هذا منذ كانوا في كل ليلة ".[2]

---

[1] -ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق) ص103
الماء الطفس هو الماء النتن القذر

[2] - ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق) ص285

ليس ابن فضلان كما رأينا ممن يفرحون بالعجائب ويرحبون بالغرائب ،ينثرونها في كتبهم لمنه يحكي بالضبط ما رأى ،وان كان الشك يخامره ويراوده فيقول زعم الملك ،فهو إذا ينقل إلينا المشاهدة على سبيل المعرفة ،دون أن يصدقها أو يطلب إلينا ذلك .

3 - وصف الأشخاص:

ويمضي ابن فضلان في وصف الناس والأشخاص وأحوالهم ،فقد وصف الحكام والأمراء ورجال الشعب على حد سواء ،فرسم الهيئات والوجوه ،ومن ذلك وصفه للمظهر الشخصي للروس فقال أنهم كانوا يلبسون رداءا واسعا به فتحة يظهر منها احد الذراعين عاريا ،وكانت سيوفهم ذات تصميم فرنسي وكانت عريضة مسطحة ومسننة ،والنساء يحملن دائما سكينا ومقصا معلقان على الصدر في علبة مصنوعة من حديد أو النحاس أو الفضة أو الذهب على حسب درجة ثراء أزواجهم.

ويقول عن بلد آخر :

"ووقفنا في بلد قوم من الأتراك ،يقال لهم الباشغرد ،فحذرناهم اشد الحذر وذلك أنهم اشر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداما على القتل"[1]

ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق) ص173-

كذلك وصفه لجواري ملك الخزر: و

"ستون ما منهن إلا فائقة الجمال وكل واحدة منهن من الحرائر"[1]

لقد عني الرحالة بالجانب الوصفي في رحلته ،قام بوصف المدن حسب آرائه الشخصية ،قد أدرك القيم الجمالية لتلك المناطق ،مما أعطى الرحالة مساحة واسعة ليظهر براعته الأدبية حيث وصف مخاطر الرحلة والعقبات التي صادفته في رحلته.

ولعل شخصية الرحالة الوصاف واللغوي المهتم باللغات والأجناس البشرية ومعتقدات وعادات الشعوب التي زارها والعالم والفقيه ،هي الشخصية التي كفلت الترابط بين أجزاء العمل الواحد بحيث دارت الأحداث جميعها في فلكه ،فحضوره حضور دائم وفاعل ،حيث يكفل الوحدة الموضوعية للعمل ويضفي عليه السمة الفنية.

ويلحظ من هذا أن مادة الرحلة قد تكونت وجمعت عن طريق التجربة الشخصية للرحالة ،وعن طريق محادثته مع شخصيات واقعية ،يعرف عليها من خلال رحلته ،فمعظم شخوص الرحلة واقعية ،عاشت في أزمنة وأمكنة لها أبعادها التاريخية والجغرافية ،ومن جانب آخر فقد اهتم الرحالة بسرد الوقائع تكثر من اهتمامه بالشخوص الثانوية ،ويراعى عند كتابة الوصف "الالتزام بالصدق والصراحة والبعد

[1] - نوال عبد الرمن الشوابكة – ادب الرحلات المغربية والاندلسية (مرجع سابق)ص 292

عن الرياء"هذا ما لاحظناه في رحلة ابن فضلان، فقد استخدم مهارات لغوية عالية بوصفه القريب ثم البعيد، الكبير ثم الصغير أو العكس.

استخدم مختلف الفنون اللغوية وابتعد عن الجمل التمهيدية او الختامية والدخول المباشر في الموضوع ،وهذا ما جعله يستخدم لوحة فنية معبرة،استخدم أرائه وملاحظاته واصفا الشخوص والمكان والزمان .

إن هذا التجسيد في عرض الأحداث وهذا الأسلوب والطريقة التي يسلكها الكاتب في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، والإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة تطلبت "حس فني من هذا المبدع".[1]

الرحالة فنان لأنه جعلنا نغوص في رحلته،من خلال رصده لحالة مجتمع عاش إبان فترة زمنية محددة ومن خلال تعبيره عن تجربته الشخصية أو المواقف التي مر بها أثناء قيامه بهته الرحلة الصعبة،كاشفا لنا ما مر به من تجارب ومحن.

فهذه الخصائص جميعا تتألف لتساهم في جمال الأسلوب، فاتحد الشكل والمضمون في تناسق تام، جعل للنص أثرا في الأسماع والنفوس.

خطاب الرحلة القائم على الوصف يتفاعل مع الكثير من الخطابات الدينية والاجتماعية لهذا العالم الذي ينتقل فيه الخطاب من الواقعية إلى الغرائبية،فقد وظف الرحالة طابع الوصف الدقيق والطريف للواقع والمشاعر الإنسانية التي تحرك العاطفة ،مما جعلها من أسمى وأرقى الرحلات على الإطلاق.

---

[1] - سيد حامد النساج-مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا(مرجع سابق)ص41

3- وقفات الحوار:

إن الحوار كفن إبداعي أدبي لا يتوقف نجاحه في كتابته وتحقيقه للإقناع على استخدام الكاتب له في كتابته العامية أو الفصحى ،بل يعود إلى انتقاء اللغة المناسبة له ،وضمن مناسبته للشخصيات الناطقة به ،فهو أداة لغوية،فمن خلال طوله وأسلوبه ومستواه ونوعه ومناسبته للمتكلم ووظيفته مكريا ورمزيا وتقنيا وسرديا ووصفيا ودوره في رسم الشخصيات وطريقة الإقناع ، جعله يصبح عنصرا بارزا بمعزل عن محيطه الفني الذي يأتي منه.

فقد ارتبط الحوار بفنون الأدب الذي يشكل بيئة نموذجية له أكثر من ارتباطه بالفنون الأخرى، وهذا ما جعله"من أهم العناصر التي تتكون منها القصة القصيرة أو المطولة"[1]

ومن ابسط تعريفاته انه حديث يدور بين شخصين على الأقل، ويتناول شتى الموضوعات، أو هو كلام يقع بين الأديب ونفسه أو من ينزله مقام نفسه "يفرض منه الإبانة عن المواقف، والكشف عن خبايا النفس"[2]

---

[1] - د. حسين القباني –فن كتابة القصة-دار الجيل، بيروت-1979

[2]- د. جبور عبد النور-المعجم الأدبي(مرجع سابق)ص100

فهو كلام الشخصيات ومحادثتها في أي نوع من الأعمال الأدبية،فالحوار في لغته وماهيته ليس لغة فحسب بل هو جزء من السرد ووسيلة تقنية تسهم في تطوير الحدث والسير بالخط الروائي إلى الأمام ،فهو عنصر هام من اللغة والأسلوب، وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالشخصيات المتكلمة به والموجه إليها ،فالحوار هو كلام الشخصيات ،أكثر مما هو كلام المؤلف،وهذه حقيقة يفترض أن ينطلق منها كتاب الرواية والقصة حين يكتبوا حوارات أعمالهم كما يجب علينا الإشارة إلى أن العرب القدماء قد انتبهوا بشكل ما إلى هذه الحقيقة وان لم يكن ذلك من خلال حقول الحوار الإبداعية التي نعرفها اليوم ،فهو نقل للنوادر والكلام العام.

الحوار من أساليب التعبير الحوارية التي تتطلب حديث شامل بين شخصين أو أكثر حول فكرة أو موضوع معين وحسب نوع الموضوع يكون الشكل العام للحوار ، ويراعى عند كتابة الحوار تسلسل الجمل وترتيبها منطقيا مع السهولة والوضوح واستخدام مفردات اللغة بشكل يكشف عن الموضوع والهدف،" فهو أداة الكاتب في إظهار الأحداث باستخدامه بين الشخصيات ،ينبغي أن يكون مطابقا للموقف"[1]

[1]-عبد العاطي شلبي- فن الإبداع الأدبي(مرجع سابق)ص41

أسلوب الحوار في الرحلة:

إن الحوار كفن إبداعي ،جزء لا يتجزأ من الفن القصصي ويسهم في بناء عالم قوامه الدوال الخاصة بكل رحلة ، ويكسبه سمات الشكل الأدبي القصصي ،كما يكسبه وظيفة سردية قصصية تهدف إلى الإقناع مما يجعل الشخصيات تتفاعل مع الحوادث وتكشف لنا شيئا فشيئا .

ويتحقق وجود المحاورة التي تكسب الرحلة الفضلانية متعة وحيوية وتشد القارئ لمتابعة الأحداث.

فالرحالة استخدم الحوار استخداما بارعا، فجاءت أحداث حكايته متحركة، نابضة بالحياة،وبصورة عامة إن الحوار في معظم الرحلة كان امتدادا للوصف والسرد،كما قام بدور كبير في البناء القصصي في الرحلة وساهم في الكشف عن نفسية الأشخاص الحافلة بالمعلومات والدلالات ،ومنه قول ابن فضلان : <<فسالت الترجمان عن فعل الجارية،فقال :قالت في أول مرة أصعدوها هو ذا أرى أبي وأمي، وقالت في الثانية هو ذا أرى جميع قرابتي،وقالت في الثالثة هو ذا أرى مولاي قاعدا في الجنة ،والجنة حسنة خضراء ومعه الرجال والغلمان وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه>>[1]

[1] - ابن فضلان – الرسالة (مصدر سابق) ص108

هذا الحوار جرى بين ابن فضلان والترجمان الذي وضح بعض العادات التي كانت منتشرة في بلاد الروسية.

والحوار الذي جرى بين ابن فضلان والنصر بن احمد صاحب خراسان : <<قال :كيف خلفتم مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وسلامته في نفسه وفتيانه وأوليائه؟ فقلنا : بخير ،قال :زاده الله خيرا ،وأين احمد بن موسى ؟فقلنا:خلفناه بمدينة السلام، ليخرج خلفنا بخمسة أيام، فقال:سمعا وطاعة كما أمر به مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه >>. [1]

فالشخصية لا تبدوا كاملة الوضوح والحيوية إلا إذا سمعها القارئ وهي تتحدث، فقد يقلل بعض الكتاب من أهمية أن يكون الحوار بشكل معين ليمكنه رسم الشخصية وتجسيدها، وبالتالي منحها الحياة وجعلها مؤثرة.

فالحوار يبرز عناصر الشخصية الخلقية والمزاجية والثقافية والسلوكية "الإقناع أمر لا يتحقق تحققا تاما إلا بالحوار الذي تنطق به، بكل ما ينطوي عليه من خصائص تفرضها خصوصيات الشخصية المختلفة "[2]

---

[1] - ابن فضلان - الرسالة (مصدر سابق) ص47

[1] - د. نجم عبد الله كاظم –مشكلة الحوار في الرواية العربية –عالم الكتب الحديث،الأردن-ط1 -2008 –ص78

فجاء الحوار متضمنا في قص الرحلة ليتخلل التحولات السردية للرحلة، مما اكسب الرحلة نوعا من الحيوية والحركة شكلت نسيجا داخليا قرب الرحلة من الأدب، مما يشير إلى ذوق أدبي رفيع.

إن الحوار يتفاعل ويترابط مع العناصر الأخرى ليحقق الغايات الفنية المرجوة من كتابة هذا العمل السردي بناءا وتقنية وموضوعا ورسما للشخصيات وخلقا للأجواءمن حول تلك الشخصيات ،مما خلق عمل أدبي متميز ، مقنع ،ومؤثر فالحوار خلق الجو العام والأجواء النفسية الخاصة للشخصية ،فقد رسم هذه الشخصيات وبعض أجزاء هويتها.

فالكاتب لكي يكتب مثل هذا النوع من الحوار يحتاج إلى أذن دقيقة ومميزة،وان يكون متمكن من الكتابة الحوارية، فقد تمكن الرحالة الدخول في عقل القارئ ومخاطبته عبر شخصيات الرحلة الحية، مما يسهم في تحقيق قناعته وقبوله بهذه الشخصيات وكلامها، وإذ يقود الحوار إلى ذلك كله أو يشترك فيه ،فإننا نستطيع معه أن ندرك الأهمية التي يشكلها هذا العنصر للعمل الإبداعي"وجعل لها روحا ثابتة تميزه عن غيره"[1]من الأعمال الأخرى.

[1] - طه عبد الرحمن – في أصول الحوار وتجديد علم الكلام- المركز الثقافي الإسلامي ، المغرب-ط2 -2000 –ص20

وتجلت باكورة هذا التحقيق في بيان كيف إن"الممارسة الحوارية التي اختص بها هذا التراث الإسلامي العربي من الفضائل الخاصة"[1] التي أصبحت بعد اليوم عنوانا على وعي الأمة وتقدمها.

إن اختلاف التجربة الإنسانية وتنوعها يقتضي اختلاف أنواع التعبير الأدبي، وقد اهتدى الإنسان إلى فنون نثرية متنوعة ينفرد كل منها بخصائص معينة ترتبط بموقف الكاتب من مادته.

وقد عرف تاريخنا الأدبي الحديث فنون أدبية كثيرة من أهمها الأدب الرحلاتي أو أدب الرحلات .

حيث تتجلى القيمة الأدبية في الرحلة في ما تعرض فيه مواردها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني.

وبالرغم مما يتسم به هذا الأدب من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الوصف إلى الحوار وغيره ،فان ابرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق ،بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى للقارئ "فقد كتبت بصياغة أدبية عالية".[2]

---

[1] - سامي سويدان-جدلية الحوار في الثقافة والنقد – دار الاداب ،بيروت- ط1 – 1995 –ص257

[1] - حسني محمود حسين- أدب الرحلة عند العرب –دار الأندلس، بيروت- 1983 – ص 09

وقد أفاد أدب الرحلات - وبغنى موضوعاته – في صرف أصحابه في غالب الأحيان،عن اللهو والعبث اللفظي والتكلف في تزويق العبارة ،إيثارا للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه ،فهو نمط خاص من أنماط القول الأدبي.

فالرحالة اهتم بسرد النص ،واعتنى بدرجة تجانسه وتماسكه كما اهتم باقتصاد الكلام المتمثل في تلاؤمه مع الشخصيات والمواقف ،كما اعتمد الصدق في سرد تفاصيل الرحلة ،مما جعلها عادلة مع الواقع ،أمينة مع الحياة الطبيعية والواقعية المعاشة ،مما جعلها قادرة على إثارة الدهشة فنيا.

انتهج ابن فضلان أسلوب خاص في كتابته رحلته وهو ما ميزه عن غيره ، ومما أعطاه لمسة خاصة وهذا لإبعاد الملل عن القارئ ومن اجل إثارة الدهشة والتشويق وإثارة أحاسيس وعواطف المتلقي دون تنميق أو تزويق.

إن قراءة نص الرحلة الفضلانية يمنح متعة نادرا ما يلتقيها المرء في عمل من النوع الأدبي نفسه ،لأسباب سيكتشفها القارئ لوحده عندما يشرع بقراءة العمل.

خاتمة

الخاتمة

بعدما وقفنا على مختلف نقاط البحث حسبما أملتهالخطة، توصلتإلى جني بعض ثمار الرحلة العلمية أرتبها بالتالي:

*الاهتمام بإبراز المكانة التي كان يحتلها العربي إثناء حقبة الحضارة العربية الإسلامية.

*تعتبر الرحلة من أهم الموارد التي تمكننا من التعرف على عادات وتقاليد وأسلوب حياة شعوب منسية، ومقارنتها بعاداتنا وتقاليدنا الموروثة

*عرضت الرحلة موضوعات اجتماعية وثقافية ارتبطت بأفعال الناس وبأخلاقهم وثقافتهم العقائدية.

*تحمل الرسالة مادة تاريخية وجغرافية معتبرة، مكنتنا من معرفة الأقاليم وتاريخ شعب قلما سجلت.

*شكلت لنا الرسالة صورة حية عن الظروف السياسية السائدة في العالم الإسلامي وعن العلاقات بين بلاد الشام والبلدان المجاورة لها.

* مزج الرحالة بين القص المعتمد على الوصف والحوار ،فجاءت خادمة للخطاب السردي ،مما أكسبها سمات الشكل الأدبي القصصي.

*اعتمد الرحالة على نظام السرد الذاتي في تشكيل نمطه، وبهذا تحولت التجربة الشخصية الى معالجة خطابية.

*تتضمن الرحلة مادة وصفية تحليلية جيدة ، تفاعلت مع الكثير من الخطابات الدينية والاجتماعية لهذا العالم، الذي ينتقل فيه الخطاب من الواقعية إلى الغرائبية.

*تمكن الرحالة من الكتابة الحوارية، مما جعل الشخصيات تبدوا كاملة الوضوح والحيوية وهي تتحدث.

*اعتمد ابن فضلان أسلوب خاص في رحلته ،وهذا ما أعطاه لمسة خاصة وسحر ورونق قلما وجد في كتابات هذا العصر .

*لا يبتعد أسلوب الرحلة عن أسلوب الأديب ولا يقترب من أسلوب الجغرافي.

*لغة الرحلة الفضلانية لغة إبداعية عالية نظرا لتمكن الرحالة من اللغة الإبداعية.

*ابتعد الرحالة عن العبث والتكلف اللفظي واتجه إلى استعمال الكلمات السهلة، المعبرة عن الغرض الذي وضعت من اجله.

المصادر والمراجع

المعتمدة

المصادر والمراجع

1- القران الكريم:رواية ورش

المصادر :

1-**احمد أمين** – ظهر الإسلام –ج3 –مكتبة النهضة المصرية –القاهرة –ط3 - 1962

2- **ابن فضلان** –رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة –دار السويدي للنشر والتوزيع-أبو ظبي-ط1 - 2003

3-**المسعودي** –مروج الذهب ومعادن الجوهر –تحقيق عفيف نايف خاطوم –ج1 دار صادر –بيروت 2005

المراجع:

1-**احمد على الملا**- اثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية –دار الفكر – دمشق-ط1 -1979

2-**إسماعيل العربي** –تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر –المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر -1986

3- **جورج غريب**-أدب الرحلات تاريخه وأعلامه-دار الثقافة –بيروت –ط1-1997

4-**حميد لحميداني** –بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي –المركز الثقافي العربي –بيروت-1993

5- **حسني محمود حسين**-أدب الرحلة عند العرب –دار الأندلس –بيروت -1983

6-**حسين محمد فهيم** –ادب الرحلات –مجلس الوطني للثقافة والفنون-الكويت - 1978

7-**حسين القباني** - فن كتابة القصة - دار الجيل - بيروت-1979

8-**سامي سويدان** - جدلية الحوار في الثقافة والنقد - دار الآداب - بيروت- ط1 - 1995

9 - **سعد زغلول عبد الرحمن** – العمارة والفنون في دولة الإسلام منشأ المعارف الإسكندرية -1986

10 - **سعيد يقطين** -الكلام والخبر - مقدمة للسرد العربي- المركز الثقافي العربي ط1 - 1997

11 - **سيد حامد النساج** – مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا – مكتبة غريب – القاهرة

12- **شعيب حليفي**-الرحلة في الأدب العربي – رؤية للنشر والتوزيع – القاهرة - ط1 -2006

13 - **شوقي ضيف** – الرحلات – دار المأمون – القاهرة – ط4

14 - **صلاح فضل** – بلاغة الخطاب وعلم النص – المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت -1962

15- **طه عبد الرحمن** - في أصول الحوار وتجديد علم الكلام - المركز الثقافي الإسلامي - مغرب - ط2 - 2000

16- **عبد الرحمن حميدة**- اعلام الجغرافيين العرب- دار الفكر- دمشق- ط2 - 1980

17 – **عبد الرحيم مودن** – الرحلة في الأدب العربي – النص، النوع، السياق- إفريقيا الشرق - المغرب - 2006

18 – **عبد العاطي شلبي** – فن الإبداع الأدبي- المكتب الجامعي الحديث - الاسكندرية

19- **فؤاد قنديل** - ادب الرحلة في التراث العربي - مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة - ط2 - 2002

20 – **قدري حافظ طوقان** – العلوم عند العرب - دار اقرأ

21 - **قصي الحسن** - من معالم الحضارة العربية الإسلامية- المؤسسة الجامعية للدراسات- بيروت - ط1 - 1993

22 – **هيثم سرحان** – الأنظمة السميائية – دراسة في السرد العربي القديم – دار الكتاب المتحدة – بيروت – ط1 -2008

23 - **نجم عبد الله كاظم**- مشكلة الحوار في الرواية العربية -عالم الكتب الحديث - الأردن - 2008

24- **نقولا زيادة** - الجغرافية والرحلات عند العرب - الاهلية للنشر والتوزيع - بيروت - 1980

25- **نوال عبد الرحمن الشوابكة** - ادب الرحلة الاندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع هجري - دار المامون - عمان - ط1 -2008

المراجع المترجمة :

1- **إغناطيوس يوليا كراتشكوفسكي** – تاريخ الاجب الجغرافي العربي – تر صلاح الدين عثمان هاشم – مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر – القاهرة -1963

2- **ثريا شرف** - الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي- تر علد العزيز طريح شرف- مؤسسة الثقافة الجامعية -الإسكندرية 2003

3- **سيد حسين نصر** – العلوم في الاسلام- ترمختار الجوهري – دار الجنوب – تونس - 1978

4- **شارل بلا** - تاريخ اللغة والآداب العربية - تر ابن وناس - دار الغرب الإسلامي – بيروت -1997

5- **كارل بروكلمان** - تاريخ الادب العربي - ج4 - دار المعارف - مصر

الموسوعات والمعاجم:

1- **ابن منظور** – لسان العرب - م11 - دار صادر- بيروت - 1955

2- **الرازي** - مختار الصحاح - دار مكتبة الهلال- بيروت - 1988

3- **جبور عبد النور** - المعجم الأدبي – دار العلم للملايين – بيروت - 1984

4- **طه عبد المقصود** - الحضارة الإسلامية دراسة في تاريخ الأمم الإسلامية- م2 دار الكتب العلمية – بيروت –ط1 - 2004

5- **الفيروز ابادي** - قاموس المحيط -ج3- دار الجيل - بيروت - 1997

6- **محمود شاكر** - موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الامم -ج1 - دار أسامة - عمان - ط1 - 2002

7- **ياقوت الحموي**- معجم البلدان- ج1، ج2، ج3 دار صادر- بيروت

الرسائل والأطروحات :

1- عبد الصمد عزوزي – ادب الرحالة الجزائريين في الخمسية الهجرية الثانية – رسالة ماجيستير –مخطوط – كلية الآداب والعلوم الإنسانية- تلمسان - 2003

2- عيسى بخيتي – جمالية المشهد في ادب الرحلة الجزائرية الحديثة – الرحلة خارج الوطن أنموذجا – رسالة ماجيستتر - مخطوط – كلية الاداب واللغات – عين تموشنت - 2010

المجلات والدوريات:

1-سميرة ساعد –صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العهد العثماني – مجلة التراث العربي -2005 – عدد 97

2- فهيم حسين - التراث الشعبي في ادب الرحلة - مجلة المأثورات الشعبية - العدد5

الفهرست

الفهرست

مقدمة:

مدخل: أدب الرحلة المفهوم والتطور

*مفهوم أدب الرحلة 2

- لغة.....2

- اصطلاحا.....3

* تطور ادب الرحلة.....5

1-الرحلة عند القدماء.....5

2- الرحلة عند العرب المسلمين.....9

- القرن الثالث هجري.....12
- القرن الرابع هجري.....13
- القرن الخامس هجري.....14
- القرن السادس هجري 15
- القرن السابع هجري.....16
- القرن الثامن هجري.....16

3- الرحلة الحديثة.....18

الفصل الأول:

1.ابن فضلان.....20

2. رحلته.....21

*أهمية الرحلة 23

-الجوانب الاجتماعية.....23

-الجوانب الثقافية.....25

-الجوانب التاريخية.....26
3.الرحلة الخصائص والمميزات.....27
- مسار الرحلة.....28
- زمن الرحلة.....34
-الأشخاص في الرحلة.....35
4.مظهر ابن فضلان في رواية أكلة الموتى كريكتون..... 45
الفصل الثاني: لغة الرحلة الفضلانية
1- مسارات السرد.....49
2- ممرات الوصف.....56
*الوصف في الأدب الرحلاتي.....56
•وصف المدن وخصائص البيئة الطبيعية.....58
• وصف الأخلاق والعادات والتقاليد 59
- الآداب والأخلاق.....59
-العادات والمعتقدات.....60
•وصف الأشخاص.....62
3- وقفات الحوار.....65
*أسلوب الحوار في الرحلة.....67
خاتمة 74